انتصاراً للدين والعقل والعلم

نقد تجربة الشك واليقين عند أبي حامد الغزالي
في كتابه المنقذ من الضلال

- قراءة نقدية تكشف أخطاء وانحرافات أبي حامد الغزالي في بحثه عن اليقين من خلال كتابه المنقذ من الضلال-

الأستاذ الدكتور
خالد كبير علال

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

أفردتُ كتابي هذا لنقد تجربة الشك والحيرة التي مر بها أبو حامد الغزالي الطوسي (ت 505 هـ)، وعنونته ب:

" نقد تجربة الشك واليقين عند أبي حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال ".

وهو قراءة نقدية للأزمة النفسية والفكرية التي ألمت بالرجل ، وهي تجربة شك وحيرة غايتها البحث عن اليقين القلبي ، وقد حكاها عن نفسه في كتابه: المنقذ من الضلال. وكتابنا هذا هو قراءة موضوعية تمحيصية ناقدة لا تبجيلية مادحة ولا تقزيمية قادحة، تبحث عن منطلقات تجربة الرجل ومسالكها وغاياتها قصد الكشف عن نقائصها وأخطائها ومزالقها التي كانت سببا في تبني الغزالي للتصوف وانتصاره له على حساب الشرع والعقل والعلم في كتابيه: المنقذ من الضلال، وإحياء علوم الدين.

وليس كتابنا هذا تشهيرا بالرجل ولا نكاية فيه ، ويعلم الله تعالى أن غايتي منه هي البحث عن حقيقة تجربة الغزالي مع الشك واليقين بعدما كادت أن تضيع في مؤلفات التصوف عامة وكتب الغزالي الصوفية خاصة. لأن مصنفاته في التصوف تسترت بالشرع والعقل والعلم مع أنها هادمة لهذه المصادر عن قصد وسبق إصرار وترصد !! . ونقدنا لتلك التجربة يكشف الأرضية الفكرية التي انطلق منها الرجل، والخلفية الصوفية التي تبناها وتحكمت في أفكاره وأفعاله كما تجلت في كتابه إحياء علوم الدين، كما أنه يُظهر حقيقة التجربة التي مر بها الرجل وآثارها عليه .

ويُعد نقدنا للمنقذ من الضلال ضروريا لأنه يكشف المنطلقات والغايات التي تبناها الغزالي بعد تصوفه، ويُساعد على معرفة وتفسير ما كتبه في الإحياء، ويحكي لنا أزمة الشك والحيرة التي ألمت به، واختياره للتصوف طريقا إلى اليقين بدلا من طرق الطالبين الأخرى التي نقدها ورفضها من جهة ؛ ويكشف الأخطاء والمزالق التي وقع فيها في نقده لطرق المعرفة والهداية من جهة أخرى ؛ ويُساعد على تعليل ممارسة الرجل للتقية بمختلف أنواع التضليل والتحريف بعد تصوفه كما بيناه في كتابنا : التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

وأنا على يقين أن كتابي هذا سيجد معارضة عند كثير من أهل العلم ، كما أنه سيجد قبولا عند آخرين. فمن يناقش الكتاب ويُبين نقائصه وأخطاءه بالشواهد الصحيحة فله الشكر والتقدير وسآخذ بالحق الذي ظهر على يديه . وأما من يتهجم على مؤلفه ويتهمه في نيته وعمله ، ويُشهّر به ويُجهّله فيما كتب فلن أسمع له، ولن أدخل معه في أي نقاش علمي ، وحسيبنا الله تعالى يوم يقوم الناس إلى رب العالمين.

وقد صنفتُ كتابي هذا انتصارا للدين والعقل والعلم ، ومنهجي في نقد المنقذ من الضلال قائم على هذه المصادر التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)(الحج : 8)) وهي التي ازدراها الغزالي وقزمها وهدمها بعد تصوفه كما فعل في كتابه إحياء علوم الدين ، فضلّ وأضل !! .

وأخيرا أسأل الله عزّ وجل التوفيق والسداد ،والثبات واليقين، والإخلاص في القول و العمل . وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

الأستاذ الدكتور خالد كبير علال
الجزائر: شعبان 1435 هـ / جوان 2014 م

الفصل الأول

ظاهرة الشك والبحث عن اليقين بين أهل العلم قديما وحديثا

أولا : نماذج من الشك والحيرة واليقين .
ثانيا: رحلة أبي حامد الغزالي بين الشك والحيرة واليقين

ظاهرة الشك والبحث عن اليقين بين أهل العلم قديما وحديثا

تُعد ظاهرة تعرض طائفة من أهل العلم للشك والحيرة وبحثهم عن اليقين ظاهرة معروفة في تاريخ العلم ورجاله قديما وحديثا . وهي على قلتها نسبيا تظهر عادة في فترات معينة من العمر ، منها مرحلة قبيل العشرينيات وأثنائها ،وقد تستمر أياما أو شهورا، أو سنين بل قد تصل إلى عشرة سنوات وقد تزيد عن ذلك أو تقل، وقد تتكرر مرة أخرى في الأربعينات من العمر، ضمن ما يُعرف بأزمة منتصف العمر وقد تجمع بين أزمتين: فكرية وعاطفية. وتلك الظاهرة هي حالة تُعبر عن قلق وانشغال وبحث عن الزاد الفكري والروحي معا ، فتنتج عنها غالبا أزمة فكرية ونفسية تظهر آثارها على أصحابها بمظاهر مختلفة وردود فعل متباينة، وقد تُحدث لهم أمراضا عضوية إذا طالت واشتدت وكانت مصحوبة بيأس وقلق ،وقنوط واضطراب.

وتلك الأزمة تشمل مختلف طوائف أهل العلم على اختلاف علومهم، من متكلمين وفلاسفة،وفقهاء ومحدثين . لكن الظاهر أنها تكثر بين الفلاسفة والمتكلمين أكثر من غيرهم بسبب طبيعة علومهم وجفافها وغلبة الشكوك والشبهات عليها وقلة اليقين فيها لانحرافها المنهجي في البحث والاستدلال. وقد جعل الشيخ أبو عمرو بن الصلاح الفلسفة مادة الحيرة والضلال والزيغ[1]. وذكر الشيخ تقي الدين بن تيمية أن الفلاسفة والمتكلمين هم أكثر الناس شكا و اضطرابا ،و ليس لهم إلا الجدل والاعتراض ،وهما ليسا بعلم ، فقد أوتوا ذكاء لا زكاء ،و أُعطوا فُهوما لا علوما [2] . وقال الحافظ شمس الدين الذهبي : إن علوم المنطق والجدل وحكمة الأوائل تسلب الإيمان. وتورث الشكوك و الحيرة[3].

---

[1] الذهبي : السيّر ، ج 23 ،ص: 143 .
[2] مجموع الفتاوى، ط ابن القاسم ، ج 5ص: 119 . و نقض المنطق ، ص: 23، 24 .
[3] الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج1ص: 205 .

ومظاهر تجليات شكوكهم متعددة أيضا، فقد تتعلق بالله تعالى كموجود ، أو بالصفات الإلهية ، أو بالقضاء والقدر، أو بالنبوة، ، أو بيوم القيامة، أو بالشك في الدين الذي يعتنقونه.

وأما مصائر تلك الأزمة في حق هؤلاء الحيارى والشاكين ، فنهاياتها ليست واحدة، فهي مرتبطة بأحوال أصحابها وظروفهم الذاتية والموضوعية من جهة، وتتوقف على نواياهم وقدراتهم ومناهجهم في البحث والاستدلال من جهة أخرى. فمنهم من يبقى مخلطا شاكا حائرا مضطربا حتى يموت ولم يصل يقين صحيح ينقذه . ومنهم من يخرج من أزمته إلى يقين صحيح، ومنهم من ينتهى إلى يقين زائف لُبس به عليه. ومنهم من يستقر حاله على موقف فيه دخن ومُتأرجح بين الشك واليقين، فهو قريب من اليقين أو من الشك. والشواهد الآتية تُبين ذلك وتُؤكده بجلاء:

أولا : نماذج من الشك والحيرة واليقين:

أذكر هنا نماذج وأحوال متنوعة وهادفة من مختلف طوائف أهل العلم الذين تعرضوا للشك والحيرة لتكون تمهيدا وأرضية لتجربة الشك واليقين عند أبي حامد الغزالي من جهة، وشواهد نقارنها مع حالة الرجل من جهة ثانية.

النموذج الأول: يتعلق بما حدث للفقيه والد إمام الحرمين أبي محمد بن يوسف الجويني(ت 438 هـ) ، إنه حكى عن نفسه ما حدث له من قلق واضطراب وحيرة في مسألة صفات الله تعالى ، فذكر أنه كان متحيرا برهة من الدهر في ثلاث مسائل ، هي: مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية – العلو- ، و مسألة الحرف و الصوت في القرآن الكريم ، فوجد نفسه مضطربا أمام الأقوال المختلفة التي تتجاذبها ثلاثة تيارات أساسية ، هي: التأويل ، و التعطيل، و الإثبات[1] .

ثم ذكر إنه لم يُعجبه ما يقوله شيوخه الأشاعرة الشافعية في تأويلهم لبعض الصفات ،وإنكارهم تكلم الله بحرف و صوت ، و قال بأنه إذا نظر للكتاب والسنة وجدهما يُثبتان ذلك ،و إذا نظر لشيوخه وجد لهم في قلبه مكانة ، فهم شيوخه الذين لهم عنده مكانة عالية لفضلهم وعلمهم ، لكنه مع

[1] أحمد بن إبراهيم الواسطي: : النصيحة في صفات الرب جل وعلا ، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ص: 18 و ما بعدها .

ذلك وجد في نفسه حزازات من تأويلاتهم ،و لم يطمئن إليها قلبه ،و وجد منها الكدر والظلمة ، وضيق الصدر وعدم انشراحه ، فأصبح ((كالمتحيّر المضطرب في تحيّره ، المتململ من قلبه في تقلّبه و تغيّره)) ، و كان من جهة أخرى يخاف على نفسه الحصر والتشبيه إن هو أثبت الاستواء والعلو و النزول[1] .

ثم حكى عن نفسه بقوله: ((فلم أزل في هذه الحيرة والاضطراب من اختلاف المذاهب والأقوال ، حتى لطف الله ، وكشف لهذا العبد الضعيف عن وجه الحق ، كشفا اطمأن إليه خاطره ، و سكن إليه سره ، وتبرّهن الحق في نوره)) ، وأشار إلى نه لم يتخلّص من حيرته و قلقه واضطرابه ، إلا بصدق الطلب ،و التجرّد من الهوى والتعصب المذهبي ،و تجاوز الشيوخ ، ثم التدبر في القرآن و السنة بعقل متحرر من التعصب طلبا للحق[2].

والنموذج الثاني: يتعلق بحالة الفقيه أبي محمد بن حزم الأندلسي(ت456 هـ) ، فهو على جلالته ومكانته في العلم فقد كان مخلطا حائرا في مسألة صفات الله تعالى ، يفتقد إلى الانسجام الداخلي مع نفسه وفكره ، فهو مع نفيه للقياس الجلي والخفي في الفقه ، كان من أشد الناس تأويلا لآيات وأحاديث الصفات[3] على طريقة التأويل الكلامي المحرف للنصوص الشرعية . بمعنى إنه كان يأخذ آيات وأحاديث الأحكام على ظاهرها في الفقه ، و يُؤوّل منها المتعلقة بالصفات و ينفيها ، فكان ظاهري الفروع باطني قرمطي الأصول في باب توحيد الله تعالى و وصفاته ،ومع ذلك كان يدعي إنه على منهاج السلف الصالح، و يُعظم أحمد بن حنبل ، ويشتد في انتقاد للأشاعرة ، و ينسبهم إلى الضلال والانحراف والكفر ، رغم إنهم أحسن منه في باب ابصفات[4].

ومن مظاهر تخليطه واضطرابه وضعفه وسلبيته أمام فلسفة أرسطو أنه مدح منطقه الصوري واهتم به وله فيه: كتاب التقريب لحدود المنطق ، حثّ فيه على الاعتناء بالمنطق ،و قدّمه على العلوم ، و قال عن كتابه هذا : هو كتاب جليل المنفعة عظيم الفائدة ، لا غنى لطالب الحقائق عنه ، فمن أراد

---

[1] نفس المصدر ، ص: 9-10 .
[2] نفس المصدر ، ص: 18 .
[3] ابن كثير: البداية ، ج 12 ص: 92 .
[4] ابن حزم : الفصل في الملل و النحل، ج 3 ص: 5، ج 4 ص: 157 ، و ما بعدها . و ابن تيمية: العقيدة الأصفهانية ، ج 1 ص: 107 . و منهاج السنة النبوية ، ج 2 ص: 854 .

أن يقف على علم الحقائق فليقرأه[1]. وقال أن كتب أرسطو في المنطق والطبيعيات كلها سالمة مفيدة دالة على توحيد الله عز وجل و قدرته، وعظيمة المنفعة في انتقاد جميع العلوم[2]. وقوله هذا باطل قطعا لأن أرسطو لم يكن موحدا أصلا، ويقول بأزلية الكون وتعدد الآلهة، وكتبه في الطبيعيات مملوءة بالأخطاء العلمية وتعد بالمئات ، ومنطقه الصوري منطق عقيم لا يصلح للعلوم ، ومكسر للرؤوس ومُعيق للفكر، وليس هنا مجال تفصيل ذلك[3].

ثم بعد ذلك التخليط والاضطراب والحيرة في المواقف ذكر الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي أن ابن حزم بعدما تعاطى المنطق الصوري أعرض عنه و أقبل على علوم الإسلام[4] . فهذا شاهد على أن الرجل كان مضطربا وقلقا ومتحيرا في مواقفه العلمية . وحالته هذه تمثل نموذجا للعالم المسلم المُخلط المريض الذي تقاذفته التيارات الفكرية من كل الاتجاهات، فإن صح ما ذكره الذهبي يكون ابن حزم قد تخلص من ذلك ، وإلا فإنه قد ظل يتخبط ولم يصل إلى بر الأمان إلى أن مات.

والنموذج الثالث يتعلق بحالة الفقيه المتكلم أبي الوفاء بن عقيل البغدادي(ت513هـ) ، تعرّض لأزمة فكرية نفسية ،ولمحنة مع أصحابه في آن واحد ، و ذلك إنه تأثر بالمعتزلة وأصبح يُؤوّل بعض الصفات تأويلا تحريفيا ،و يُعظم الصوفي الحسين بن منصور الحلاج البغدادي(ت 309 هـ) ، مخالفا بذلك مذهب الحنابلة في موقفهم من الصفات والحلاج ، فأنكروا عليه ما صدر منه ، وأهدروا دمه و طاردوه ، فاختفى منهم وأصر على موقفه ، من سنة 461 إلى 465 هـ ، ثم وضع حدا لأزمته ومحنته ، فعاد إلى أصحابه وأعلن توبته أمامهم ،و كتب محضرا أشهدهم على نفسه بأنه تاب عن الاعتزال ،ورجع إلى مذهب أهل السنة[5] .

والنموذج الرابع يتعلق بحالة الحافظ أبي الفضل بن ناصر السلامي الشافعي ثم الحنبلي البغدادي (ت 550هـ) ، حكى عن نفسه إنه تأثر بالأشاعرة في مسألة كلام الله تعالى ، وأصبح يقول بمقالتهم ، دون أن

---

[1] ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، ط1 القاهرة دار الحديث ، 1404 ، ج5 ص : 78 .و الذهبي : السيّر ، ج 18 ص: 186 .
[2] ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ج 2 ص: 77 .
[3] للتوسع فيه أنظر كتابنا: جنايات أرسطو في حق العقل والعلم . والكتاب منشور ورقيا وإلكترونيا .
[4] تذكرة الحفاظ ، ج3 ص: 1148 .
[5] انظر مثلا: ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 254 . و ابن رجب: الذيل ، ج 1 ص: 173 و ما بعدها .

يحصل له اطمئنان ، فظل مضطربا حائرا مدة طويلة ، يدعو الله أن يهديه إلى الحق ، وفي ذلك يقول عن نفسه : ((كنتُ أسمع الفقهاء في النظامية يقولون : القرآن معنى قائم بالذات، والحروف والأصوات عبارات ودلالات عن الكلام القديم القائم بالذات ، فحصل في قلبي شيء من ذلك ، حتى صرتُ أقول بقولهم موافقة)) ، ثم قال : ((و كنتُ إذا صليتُ أدعو الله أن يُوفقني لأحب المذاهب والاعتقادات إليه ، وبقيتُ على ذلك مدة طويلة أقول : اللهم وفقني لأحب المذاهب إليك ،و أقربها عندك)) ، ثم ذكر إنه رأى في المنام رسول الله –عليه الصلاة و السلام- فحثّه على اتباع مذهب أبي منصور الخياط البغدادي الحنبلي(ت499هـ) ،وفي الصباح اتصل به وأخبره بالأمر ، فقال له أبو منصور : ((يا بني مذهب الشافعي حسن ، فتكون على مذهب الشافعي في الفروع ،وعلى مذهب أحمد وأصحاب الحديث في الأصول)) ، فقال ابن ناصر: ((يا سيدي ما أريد أن أكون لونين)) ، ثم أشهده على نفسه إنه على مذهب أحمد بن حنبل أصولا وفروعا[1] .

وأما من المتفلسفة فسأذكر منهم النماذج الآتية : **أولها** يتمثل فيما ذكره المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597 هـ) بأنه رأى أقواما من المتفلسفة المسلمين لم يكسبهم التفلسف إلا الحيرة والاضطراب ، فلا هم يعملون بمقتضاه ،ولا هم يعملون بمقتضى الإسلام ، وفيهم من يصوم ويصلي ، ثم يعترض على الله و رسوله ،و يتكلم في إنكار بعث الأجساد ، فهو في عامة أوقاته في تسخّط على الأقدار واعتراض على المُقدّر . ثم ذكر ابن الجوزي أن أحدهم قال له : أنا لا أُخاصم إلا من هو فوق الفلك[2].

والنموذج الثاني يتعلق بحالة محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت548 هـ) ، كان من كبار المتكلمين المتفلسفين المتعصبين للفلاسفة المتأثرين بهم[3]. وذكر ابن تيمية أن الشهرستاني اعترف أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة و الندم ،و كان ينشد :

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلها + و سيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أجد إلا واضعا كف حائر + على ذقن أو قارعا سن نادم[4].

---

[1] ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص: 121-122 .
[2] تلبيس إبليس ، ص: 64-65 .
[3] ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج3 ص: 377 .
[4] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 4 ص: 72 .و درء التعارض ، ج 1ص: 159

و**النمـوذج الثالـث:** يخـص حالـة المـتكلم صـدقة بـن الحسـين البغـدادي الحنبلـي(ت573هـ) ، كـان متـأثرا بالمعتزلـة والأشـاعرة والفلاسـفة عامـة، وبابن سينا وكتابه الشفا خاصة ، فأصبح مُزلزل العقيدة ، مُضطرب النفس والفكر، قلقا مِشكاكا حيرانا، بسبب أزمته الفكرية والنفسية التي عصفت بـه. ، فكان يظهر منه ما يدل على سوء عقيدته ، من ميل إلـى الأفكـار الفاسـدة ، وإنكار بعث الأجساد ، و اعتراض على القدر ونقمته عليـه ،و كانـت تنتابـه حيرة و شك ، يظهران على أشعاره ، كقوله :

واحيرتا من وجود ما تقدمنا × فيه اختيار ولا علم فنقتبس
ونحن في ظلمات ما لها قمر × يضيء فيها ولا شمس ولا قبس[1]

وقوله عن الدنيا :
أتراها صنعة من غير صانع + أم تراها رمية من غير رام [2]

وقوله :
إن نظرت بعين القلب ما صنع الدّهر × فألفيته غرّا وليس له خبر
فنحن سدا فيه بغير سياسة × نروح و نغدوا وقد تكنّفنا الشر[3]

فـإن صـحّ هـذا الشـعر عـن صـدقة بـن الحسـين ، فيكـون قـد فقـد إيمانـه بالإسلام كلية ، لأن التساؤلات والشبهات التـي أثارهـا أجوبتهـا فـي الشـرع الحكيم معروفة منه بالضرورة . فلماذا يبحث عن أجوبة لهـا ؟ ! كمـا أنـه قـد رُوي عنه – في اعتراضه على القدر- إنه مرض يوما واشتدّ بـه الألـم فقـال عن الله تعالى : ((إن كان يريد أن أموت فيميتني ، فأما هذا التعذيب فمـا لـه معنى))[4]. إنّه بقوله هذا قد سقط فريسة لشبهات المتكلمين والفلاسـفة ، ولـم يستطع فكهـا والـردّ عليهـا ، فأمرضـه كتـاب الشـفاء ولـم يشـفه، وفقد إيمانـه وثقته بالله تعالى،وهجمت عليه الوساوس والشكوك .

و يدل اعتراضه على القدر علـى جهلـه بسنن الله وحكمتـه فـي خلقه،لأنـه تعـالى يبتلـي عبـاده بالسـراء والضـراء ، وهـو العـادل الـرحيم الحكـيم ؛ فقـد تكون رحمتـه فـي المنـع و نقمتـه فـي العطـاء ،وقد يُمرض عبده قبيل وفاتـه

[1] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 10 ص : 277 .
[2] فيما يخص ما ذكرناه عن صدقة بن الحسين أنظر : ابن الجوزي : المنتظم ، ج 10 ص: 276 ، 277 ، 344 . و تلبيس إبليس ، ص: 64-65 .و ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1ص: 342 .
[3] نفسه ج10 ص :277 .
[4] ابن مفلح : الآداب الشرعية ج2 :203 .

ليعطيه فرصة الرجوع إليه ،و يفتح له بابا للدعاء والإخلاص والتضرع إليه ، لذا يبدو أن صدقة بن الحسين غفل على أن الاعتراض على الحكيم شكّ وجهل، وإن التسليم له علم و يقين . إنه دخل في حيرة واضطراب ما لهما من قرار، ولم يعرف كيف يتخلص منهما بطلب اليقين ، والظاهر أنه مات على ذلك .

والنموذج الربع : يتمثل في حالة فخر الدين الرازي المعروف أيضا بابن الخطيب (ت 606 هـ) ، كان من المتكلمين المتفلسفين المتأخرين الذين خلّطوا الفلسفة بالكلام ، فكثُر اضطرابه وشكه و حيرته بحسب ما ازداد به من ظلمة المتفلسفة الذين خلّطوا الفلسفة بالكلام[1] .وقال عنه ابن حجر العسقلاني : إنه كان كثير التشقيقات و الشبهات التي تورث الحيرة[2] ؛ فوقع هو فيها ولم ينج منها . و روى ابن الصلاح أنه التقى بمن سمع الرازي وهو يقول : ((ليتني لم اشتغل بعلم الكلام ،وبكى))[3]. ومن أشعاره التي تعبر عن حيرته وقلقه ، قوله :

نهاية إقدام العقول عقال + وأكثر سعي العالمين ضلال
أرواحنا في وحشة من جسومنا + وحاصل دنيانا أذى و وبال
و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا + سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[4].

والنموذج الخامس: يتعلق بحالة أبي الحسن سيف الدين الآمدي (ت 631 هـ) ، قال عنه ابن تيمية : إنه من المتفلسفين المتأخرين الذين خلّطوا الفلسفة بالكلام ، فكثُر اضطرابه وشكه وحيرته ، بحسب ما ازداد به من ظلمة المتفلسفة الذين خلّطوا الفلسفة بالكلام[5] . و قال عنه ابن قيم الجوزية : إنه كان في المسائل الكبار يذكر حجج الطوائف ،ويبقى هو واقفا حائرا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ثم ذكر قوله تعالى : ((أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)(النساء: 88))[6] .

وذكر الحافظ شمس الذهبي أن شيخه ابن تيمية حدّثه عن الآمدي بأن الحيرة والوقف كانا يغلبان عليه ، حتى أنه أورد على نفسه سؤالا في

[1] منهاج السنة ، ج 3 ص: 288 .
[2] لسان الميزان ، ج 4 ص: 426، 428 .
[3] ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 7ص: 41 .
[4] نفس المصدر ، ج7 ص: 42 .
[5] منهاج السنة ، ج3ص: 288 .
[6] الصواعق المرسلة، ج3 ص: 841 .

تسلسل العلل ،وزعم أنه لا يعرف عنه جوابا ، ثم بنى عليه إثبات الخالق ، فهو لا يقرر في كتبه إثبات الله ،ولا حدوث العالم ،ولا وحدانية الله ،ولا النبوات ،ولا شيئا من الأصول الكبار . ثم عقّب الذهبي على كلام ابن تيمية بقوله : ((قُلتُ ، هذا يدل على كمال ذهنه ، إذ تقرير ذلك بالنظر لا ينهض ،و إنما ينهض بالكتاب والسنة))[1] .

واضح من كلام شمس الدين الذهبي أنه فهم من كلام شيخه –أي ابن تيمية - ما لم يقصده ، فهو –أي ابن تيمية – قال : إن الآمدي لا يُقرر أصول العقيدة في مصنفاته لغلبة الحيرة والوقف عليه ، وليس لأن ذلك يدل على كمال ذهنه على حد قول الذهبي . فلو كان كذلك لقرر الأصول الكبار بأدلة الشرع واستراح من عناء البحث والحيرة والتوقف، لكنه لم يفعل ذلك ، فأين كمال ذهنه ؟ . وقول الذهبي بأن العقيدة لا ينهض بها إلا الكتاب والسنة ، هو كلام صحيح ؛ لكن ذلك لا ينفي أن في مقدور العقل أن يُقيم الأدلة على إثبات الخالق وحدوث الكون ، لأن الله تعالى فطر الإنسان على الإيمان به ، وحثه على استخدام عقله لمعرفته ومعرفة أنبيائه ؛ قال تعالى : ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)(الزمر : 38)، فكفار قريش كانوا يُقرون بحدوث الكون و أن الله تعالى هو الذي خلقه رغم كفرهم برسالة الإسلام .

والنموذج الأخير- السادس من المتفلسفة- يتمثل فيما رواه المؤرخ عبد الكريم الرافعي القزويني أنه قيل لأحد الفلاسفة- عندما حضرته الوفاة - : كيف وجدت الأمر ؟ قال : أُدخلت في الدنيا جاهلا ،وعشت فيها متحيرا، وخرجت منها كارها))[2].

وأما الصوفية فهم أيضا انتهى التصوف بكبارهم إلى حالة الشك والحيرة وإن جعلوها من مقامات طريقهم، لكن الحقيقة هي أن تلك الحالة هي نقص واضطراب ومرض ومن علامات الانحراف عن الوحي والعقل والعلم، وليست صحة ولا يقينا ولا كمالا . ولهذا فهي ليست مما يُمدح ويُطلب ويُحث عليه، بل يجب التحذير منها ولا يصح الرضا بها، ومن يقول خلاف هذا فهو إنسان مريض مُلبس عليه. ومن الشواهد الدالة على حيرة الصوفية وشكوكهم واضطرابهم قول الصوفي أبي يعقوب إسحاق بن

---

[1] السيّر، ج 22 ص: 366 .
[2] التدوين في أخبار قزوين ، حققه عزيز الله العطاردي، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1987 ، ج 3 ص: 360 .

محمد النهرجوري(ت 330 هـ) : ((أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه))[1]. وقال أحد متقدمي الصوفية:((أما التوحيد فهو الذي يعمي البصير، ويُحير العاقل، ويُدهش الثابت))[2].

وقيل لأبي القاسم الجنيد- شيخ الصوفية وسيدهم - : هل عاينت أو شاهدت؟ قال: لو عاينت تزندقت. ولو شاهدت تحيرت، ولكن حيرة في تيه وتيه في حيرة))[3]. وعن الجنيد أيضا أنه قال: ((إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد تناهت إلى الحيرة))[4].

وقال أبو نعيم الأصبهاني: ((حدثنا ظفر، حدثنا محمد بن أحمد بن محمد حدثني أحمد بن عبد الله ابن ميمون، قال: سمعت ذا النون يقول- وقد سئل عن أول درجة يلقاها العارف- قال: التحير ثم الافتقار، ثم الاتصال، ثم انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة))[5].

وأما بالنسبة لظاهرة الشك والحيرة بين أهل العلم في زمننا المعاصر فهي كثيرة بينهم ، نظرا للنزعة المادية المتطرفة المهيمنة على العالم، وانتشار حركات الإلحاد أيام المعسكر الشيوعي الذي كان يحارب الأديان والإيمان بالله وينشر الإلحاد بكل ما يستطيع . والشواهد على ذلك كثيرة من بين أهل العلم الذين عاشوا أزمات فكرية ونفسية انتهت بكثير منهم إلى العودة إلى الإيمان بالله عامة ودين الإسلام خاصة. منهم الباحثة الأمريكية اليهودية الأصل مريم جميلة، والدكتور مصطفى محمود ، وعبد الوهاب المسيري. ويوجد غيرهم من لم يكتب عن حيرته وشكه أثناء بحثه عن الحق فآثر عدم الافصاح عما حدث له ، لكن بعضهم تظهر عليهم بعض الملامح والشواهد التي قد تدل على تعرضهم للشك والحيرة في مرحلة من مراحل أعمارهم.

وقد لاحظتُ حالات من الشك والحيرة على بعض الطلبة وكلمتُهم وناقشتهم بعدما صرّحوا لي بما حدث لهم . وأرشدتهم وبينت لهم أمورا تنفعهم وتساعدهم على تجاوز هذا المرحلة الحرجة من حياتهم .

---

[1] أبو عبد الرحمن السلي: طبقات الصوفية، ص: 106 .
[2] السراج الطوسي: اللمع ، ص: 52 .
[3] أبو نعيم الأصبهاني: الحلية ، ج 4 ص: 383
[4] الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 66 .
[5] أبو نعيم الأصبهاني: الحلية، ج 9 ص: 374 .

والظاهر أن أكثر أهل العلم لا يتعرضون لمثل تلك الأزمات الفكرية والنفسية الحادة المصحوبة بالشك والحيرة والقلق طلبا لليقين. لكن يبدو أن غالبيتهم قد يتعرضون لذلك جزئيا في قضية من القضايا وتكون خفيفة وقصيرة المدة لقوة إيمانهم وطبيعة شخصيتهم، ونوعية القضايا التي حيرتهم وشككتهم.

وإنهاءً لما ذكرناه وتعليقا عليه أذكر التوجيهات والفوائد الآتية: أولا على المُصاب بمثل تلك الأزمات عليه أن يصبر ويبحث عن العلاج الصحيح فكريا ونفسيا، مع الحرص على عدم الاضطراب والقلق لأن الأمر قد يتطور ويصبح وسواسا قهريا ومرضا عضويا . وسيحدث الشفاء بحول الله تعالى بالعلم واليقين والصبر، فتزول الشبهات بالعلم واليقين وتُدفع الشهوات بالصبر والمجاهدة. وعلى المُبتلى أن يعلم أن ما أصابه يندرج ضمن سنة الله في البلاء والامتحان، وقد تطول المدة وقد تقصر فإذا كان أبو حامد الغزالي أزمته لم تدم طويلا فهناك من دامت أزمته عشرة سنوات فأكثر، ومنهم من أصابته مرتين: الأولى في مرحلة الشباب ، والثانية عاودته في الأربعينيات من عمره أو بعدها .

وثانيا على المُصاب بالشك والحيرة أن يكون قويا ولا يترك للقنوط طريقا إلى قلبه لأنه قد يُدمره نفسيا وفكريا. وعليه أن يجتهد في طلب العلاج بنفسه أو بمساعدة غيره حسب نوع وطبيعة أزمته، ولا يتركها حبيسة نفسه. ويحذر من الانطواء على النفس والانسحاب من المجتمع كلية ، فهذا قد يضره أكثر مما ينفعه .

وثالثا على المُصاب بالشك والحيرة أن يعلم يقينا أن نهايات الشاكين والحائرين ليست واحدة، وإنما هي حسب نوايا أصحابها ومناهجهم في البحث والاستدلال من جهة القوة والضعف والسلامة والدخن. وليعلم أن المخلص في طلب الحق وفق المنهج الصحيح لن يخذله الله تعالى ، ولهذا قيل: إنما يعثر من لم يُخلص .فليحرص المصاب على أن تكون نهايته مُشرقة لا مُحرقة.

ولذلك تبين من حالات هؤلاء المُصابين أن منهم من كان مُخلطا فظل كذلك حتى انتهي إلى الضلال المبين. ومنهم من كان مخلطا مضطربا ودخل في شك وحيرة مدة ثم استقر ووصل إلى الإيمان واليقين. ومنهم من

كان مستقيما ثم اضطربت أحواله مدة ثم عاد إلى الاستقرار واليقين. ومنهم من كان مستقيما فاضطرب وظل ضالا إلى أن مات . ومنهم من كان عاديا ثم هجمت عليه الشكوك والشبهات ودخل في صراع معها ثم عاد في النهاية إلى الاستقرار لكنه لم يصل إلى اليقين وإنما وصل إلى يقين زائف ومغشوش. ومنهم من كان كذلك لكنه وصل إلى الحق واليقين.

ورابعا على المُصاب بالشك والحيرة أن يُحدد سبب أزمته بدقة ووضوح ليطلب له العلاج المناسب. فإن كانت أزمته لا تتعلق بالشك في وجود الله تعالى، وإنما تتعلق مثلا بالنبوة، أو القضاء والقدر، أو بالصفات الإلهية ، فهنا يكون يقينه وتمسكه بالله سبحانه هو المنطلق الذي ينطلق منه ويتحرك عليه، فيطلب الحلول لنفسه ويعلم أن هذا يندرج ضمن سنة الله تعالى في الامتحان والبلاء والابتلاء لتمييز الناس وتمحيصهم، فكما أنه سبحانه يمتحن الناس بالسراء والضراء، وبالصحة والمرض، وبالفقر والغنى وبالشهوات فكذلك سبحانه يبتلي بعض الناس بالشكوك والحيرة والشبهات. وليعلم أن الأمر مهما طال سينتهي إلى الزوال والشفاء والاستقرار بحول الله تعالى،لقوله سبحانه: ((وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (الطلاق:2 - 3))، و((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)(العنكبوت: 69)) .

وإن كان سبب شكه وحيرته يتعلق بوجود الله تعالى لشبهة من الشبهات أو لأمر آخر فعليه هنا أن لا يضطرب و يجب عليه أن ينطلق من ثوابت صحيحة بحثا عن العلاج والجواب الصحيح لمشكلته الفكرية التي تُؤرقه . وهنا عليه أن يكون صريحا مع نفسه ، ويسأل أهل العلم عن الشبهات التي تُقلقه . لكن يحذر أن ينزلق وينحرف فكريا من جهة منهج الطلب الذي يعتمد عليه، فيجب عليه أن يبقى متمسكا بالعقل البديهي أولا وبالعلم الصحيح ثانيا ، فهما اللذان يعصمانه من الانزلاق والوقوع في جحيم الأهواء والشبهات الشهوات والخيالات ، والهلوسات والتلبيسات الشيطانية. لأن الشياطين تصطاد ضحاياها في مثل هذه الحالات النفسية والفكرية القلقة التي يكون فيها الإنسان ضعيفا مُضطربا فتهجم عليه بالشكوك والشبهات، فإذا اجتمعت عليه فقد تهلكه وتدمره والعياذ بالله. قال تعالى: ((لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)(الحج : 53))، و((وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)(الأنعام: 121))، و((شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)(الأنعام: 112)). وفي هذه الحالة عليه ان يعتمد أيضا على القرآن الكريم فهو حتى وأن كان شاكا فيه بحكم أنه يبحث عن الله تعالى فإن القرآن يتضمن براهين وحججا قطعية تقوم على البديهة والعلم الصحيح كقوله تعالى: ((امْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)(الطور: 35 - 36))، هذه الحجة لا تُرد ولن يستطيع أحد إن ينقضها بالعقل أو بالعلم ومن يردها فهو يردها بالأهواء والظنون لا بالعقل والعلم، ومتى كانت الأهواء والظنون أدلة علمية يُعتمد عليها؟؟ . فعلى الشاك والمتحير أن يستفيد من حجج القرآن وبراهينه كما يستفيد من أدلة العقول والعلوم ، لأن القرآن ليس موجها للمؤمنين فقط، وإنما هو موجه لأكل بني آدم ، فهو رسالة الله الخالدة الخاتمة الموجهة إلى الإنس والجن، والقرآن مملوء بخطاب الله تعالى للإنسان كمخلوق عاقل مُكلف . فلا بد على المُصاب بذلك أن يعتمد على العلم والعقل والوحي، هذه هي مصادر العلم لقوله تعالى : ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)(الحج : 8)). فعليه أن يعالج نفسه بحجج وبراهين القرآن الكريم كما يستخدم أدلة العقل الفطري والعلم الصحيح. وأدلة القرآن الكريم تمتاز بأنها تجمع بين مخاطبة العقل والقلب وإيقاظ الوجدان بطريقة فطرية قوية دامغة، كقوله تعالى: ((وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً)(النساء: 39))، و((يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)(الانشقاق: 6))، و((يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ (الانفطار: 6 - 8)).

وأخيرا- خامسا- فليعلم المصاب بالشك والحيرة أنه إذا أحسن علاج نفسه أن تخلصه من أزمته ليس بالضرورة أن ترتفع عنه دفعة واحدة ليظفر باليقين، وإنما هي كالمرض فقد يُشفى منها دفعة واحدة، أو على فترات متقاربة ، أو قد تستمر مدة أطول تدريجيا كأنها فترة نقاهة. وليعلم أيضا أنه لو يُحسن التعامل مع حالته ويفوز في الامتحان فسينال جائزته في الدنيا قبل الآخرة. لأن الله تعالى سيرزقه الإيمان القوي، ويُجازيه بما صبر باليقين والثبات والاستقرار ، ويرزقه العلم الصحيح والقدرة على حال المشكلات الفكرية ويصبح نبراسا لغيره ومجاهدا في سبيل الله ضد دعاة الضلال والأفكار والمذاهب الهدامة.

ثانيا: رحلة أبي حامد الغزالي بين الشك والحيرة واليقين:

بالنسبة لأبي حامد الغزالي (450 – 505 هـ) فقد روى في كتابه المنقذ من الضلال[1] جانبا من أزمته النفسية والفكرية التي أصابته بسبب الشكوك والحيرة التي استولت عليه وأمرضته في نهاية الثلاثينيات من عمره. علما بأن الغزالي لم يحدد سنة بداية أزمته بالضبط ، ولا سببها الواضح المباشر، فمرة تكلم عنها ضمن مساراه العلمي من قبل العشرين إلى سن الخمسين. ومرة أشار إلى ما يدل على أن حياته العلمية كانت كلها أزمة بحث وحيرة وقلق، بل بدأت منذ صباه. ومرة يُشير إلى أنها بدأت قبل سنة 488 هـ بنحو أبع سنوات . ومرة يذكر ما يدل إلى أن أزمته اشتدت عليه مرتين : الأولى دامت نحو شهرين قبل تبنيه للتصوف، والثانية دامت قرابة ستة أشهر بعد اختياره للتصوف[2].

ومما ذكره عن أزمته الأولى أنه شك في الحواس والبديهيات واختلط عليه الأمر وعجز عن الحسم ودامت أزمته قريبا من شهرين وهو على مذهب السفسطة ثم شُفي وعاد إليه يقينه في اليقينيات العقلية[3]. وبعدها دخل في مرحلة البحث عن اليقين بقراءة نقدية تمحيصية لكتب المتكلمين والفلاسفة ،والشيعة الإمامية والصوفية بحثا عن الحقيقة التي توصله إلى اليقين القلبي ، فانتهت رحلته باختيار طريق الصوفية سبيلا إلى اليقين ورفض طرق الآخرين.

ثم بعدما تخلص من الشك والحيرة وتبنى التصوف طريقا وعقيدة كان عليه أن يطلب اليقين الصوفي بممارسة عبادات التصوف ، فدخل في صراع نفسي بين جواذب الدنيا لبقائه في التدريس ببغداد وبين جواذب التصوف للتفرغ له ولعباداته ، فقال: ((فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيبياً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب،

[1] صنفه بعد تصوفه وكتابته لأحياء علوم الدين، كتبه سنة 502 هـ . عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، 1983 ص: 491 .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ، حققه سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الأسكندرية ،، ص: 9 وما بعدها .

[3] الغزالي: المنقذ من الضلال ،،ص: 9 – 10 .

بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجبي المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ...)) ، ثم بعدها خرج من بغداد إلى الشام وبقي نحو سنتين تفرغ فيها للخلوة الصوفية وعباداتها تطبيقا للطريق الصوفي، ثم أدى فريضة الحج وعاد إلى وطنه وتفرغ للخلوة الصوفية وأذكارها[1]. فواظب على ذلك احدى عشرة سنة من سنة 488 إلى 499 هـ وفيها خرج من نيسابور داعيا للتصوف ناشرا للعلم الصوفي[2].

تلك هي الخطوط الكبرى التي توجز الأزمة النفسية والفكرية التي ألمت بأبي حامد الغزالي بداية ونهاية .ويُلاحظ عليه أن سبب أزمته لم تكن الشك في الله ، أو إنكار وجوده ، ولهذا فهو لم يركز على إثبات وجود الله في المنقذ، وإنما سببها أن الرجل كان يبحث عن اليقين القلبي في الله تعالى. فلما اهتم بهذا الأمر فقد ثقته في المعرفتين الحسية والعقلية، وعندما عادتا إليه تركهما بعد نقده لهما ولطرق الفلاسفة والمتكلمين والشيعة الإمامية، وأقبل على التصوف كطريق وحيد عنده ليوصل إلى اليقين القلبي بالله الذي كان يطلبه. ولهذا سمى كتابه الذي سجل فيه أزمته : المنقذ من الضلال الموصل إلى ذي العزة والجلال . فهل حقا أن الغزالي وصل إلى اليقين الصحيح ؟؟. ألم يقع في أخطاء ومزالق في بحثه عن اليقين أثناء أزمته الفكرية والنفسية؟؟. وألم تلتبس عليه الأمور في نقده لمسالك الطالبين واختياره لطريق الصوفية؟؟. وهل كانت نهاية أزمته مُشرقة أم مُحرقة ؟؟. وهل كان منهجه في البحث والاستدلال صحيحا قائما على الوحي والعقل والعلم ؟؟. وهل اعتصم بالشرع وتمسك به أثناء شكه وطلبه لليقين القلبي ؟؟. وهل حقا أن التصوف أنقذه من الضلال أم أهلكه ؟؟. هذه التساؤلات وغيرها ستجد إجاباتها في الفصول الآتية من بحثنا هذا إن شاء الله تعالى .

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 37 ، 38 ، 39 .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 51 ، 52 .

الفصل الثاني

نقد مواقف الغزالي من المعرفتين الحسية
والبديهية أثناء شكه وحيرته

أولا: نقد موقف الغزالي من الحواس- المعرفة الحسية-

ثانيا: نقد موقف الغزالي من البديهيات - المعرفة العقلية-

نقد مواقف الغزالي من المعرفتين الحسية والبديهية أثناء شكه وحيرته

عرّف الغزالي العلم اليقيني بقوله: ((فقلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين ...))[1]. هذا هو العلم الذي طلبه الرجل، ومن أجله وبمقياسه نقد المعرفتين الحسية والعقلية ، فهل التزم بمقتضياته في نقده للحواس والبديهيات العقلية ؟ وهل اتبع المنهج الصحيح في البحث والاستدلال ليصل به إلى مبتغاه ؟، وهل أصاب في نقده لها ؟.

أولا: نقد موقف الغزالي من الحواس- المعرفة الحسية-:

بعدما عرف أبو حامد الغزالي معنى العلم اليقيني بشروطه ذكر بأن العلم الذي كان قد تلقاه لا ينطبق عليه تعريف العلم اليقيني فشك فيه إلا في الحسيات والضروريات العقلية ثم شك فيها وانتقدها فقال: ((ثم فتشت عن علومي، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة، إلا في الحسيات، والضروريات، فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه، ولا غائلة له. فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهي بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً، وأخذ يتسع فيها ويقول: من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرة، ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 .

الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس، بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات))[1].

وأقول: يبدو من كلام الغزالي أن نقده للحواس هو نقد موجه مُسبقا وعن سبق إصرار وترصد للحكم بالإعدام على المعرفة الحسية- الحسيات- ليكون الخطوة الأولى لتحقيق غاية في نفسه . فنقده للحواس الظاهر أنه مشهد من مشاهد القصة التي سيقصها علينا الغزالي في المنقذ من الضلال كما يراها ويريدها . وانتقاداته للحواس سطحية ومتناقضة وغير صحيحة في معظمها . لأنه أولا: إن نظرة الرجل للعلم والمعرفة الحسية والعقلية والوجدانية هي نظرة ناقصة وجزئية ومفككة ،وهذا خطأ منهجي كبير وفادح، لأن كل وسائل المعرفة في الإنسان تعمل معا وتعتمد على بعضها فهي مكملة لبعضها ولا يُمكن لواحدة منها الانفصال أو الاستغناء عن الأخرى . ولهذا وجدنا الرجل ينقد المعرفة الحسية بالحواس والعقل من جهة، ويطعن فيها ويحكم عليها بالإعدام وعدم الثقة بالحواس والعقل من جهة أخرى !! . وهذا تناقض واضح صارخ، يشهد على عدم صحة حكمه على الحواس بعدم الثقة .

وثانيا إن أبا حامد الغزالي يتساءل مع نفسه في البحث عن الحقيقة وشكه في علمه التقليدي، وفي نقده للحسيات والضروريات العقلية ونسي أو تناسى أن حواره هذا كله قائم على الإحساس والحواس الباطنية والخارجية ،وأنه يُشكك في نفسه بنفسه، وينقدها بنفسها ويُصحح معارفها بنفسها وبالحواس. فالرجل ينقد الحواس بالحواس وبقدراته الأخرى التي لا تنفصل أيضا عن الحواس. فهو موجود وينقد ويختار ويصحح بالحواس ثم يزعم أنه فقد ثقته في الحواس مع أنه لولاها ما قام بكل ذلك، ولا دخل ولا خرج، ولا ذهب ولا جاء، ولا رأى ظلا ولا كوكبا. فهل من يقوم بكل ذلك يُحكم عليه بعدم الثقة ؟؟. أليست هذه مسرحية فيها تلاعب وتغليط وغير مُحبكة الأدوار ؟؟ !!.

وثالثا إن نقده للحواس بدليل الظل هو نقد ضعيف جدا، بل ولا يصح، ولا يليق أن يقوله عالم ينقد المعرفة الحسية . لأن الحواس فيما أظهرته لنا

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 .

أعطت لنا الحقيقة من جهتها ولم تُعط لنا معلومات خرافية أو كاذبة . فنحن لا نرى حركة الظل لضعف بصرنا وبطء حركة الظل وهذا ليس عيبا ولا خطأ ولا تحريفا للواقع ولا تكذيبا له، لأن الحواس نفسها فيما بعد ستبين لنا أن الظل تحرك وبها عرفنا ذلك، فالحواس تعطينا الحقيقة في النهاية، بالتدرج حسب قدراتها الذاتية . لكن لو أنها مثلا أظهرت لنا أن الظل غير موجود مع إمكانية رؤيته بالعين ثم تبين بغير الحواس أنه موجود هنا يصح أن نطعن في الحواس لأنها أخطأت وضللتنا . لكن هذا لن يحدث عندما تكون الحواس سليمة من جهة ، وأي تقويم للحواس وتصويبها والحكم عليها لن يكون إلا بوجود الحواس من جهة أخرى. وهذا يعني قطعا أنه لا يصح الحكم على الحواس -في حدودها الطبيعية- بعدم الثقة كما فعل الغزالي. كما أن الحكم عليها بعدم الثقة هو حكم ناقض لنفسه، لأن أي حكم عليها سلبا أو إيجابا لا يتم إلا بالحواس، وهنا هذا يعني أن أحكامها صحيحة ويجب أن نثق فيها عندما تتم العملية بطريقة صحيحة .

والشاهد على ذلك أيضا أن الغزالي نقض حكمه عندما نقد الحواس في رؤية العين للظل بدعوى أن التجربة والمشاهدة تبينان خلاف حال الظل الذي ظهر لها ثابتا ثم تبين أنه يتحرك. وهذا دليل ضده ينسف موقفه من أساسه . لأن كلا من التجربة والمشاهدة لا يتمان إلا بالحواس ، فلا يُمكن أن تحدث تجربة ولا مشاهدة بلا حواس . وهذا يعني أن الحواس تصحح معلوماتها ،وتعطينا مستويات مختلفة عن الحقائق الموضوعية، وتتجنب الأخطاء بنفسها وبالعقل معا لنصل في النهاية إلى معرفة الحقيقة كما هي في الواقع . فالرجل حكم على الحواس بعدم الثقة وقزّمها وحط من شأنها، لكنه من جهة أخرى استخدمها ووثق فيها عندما حكم عليها بذلك ، وبدونها ما كان يُمكنه الحكم عليها بعدم الثقة !! .

وأما بالنسبة لمثال الكواكب الذي ذكره الغزالي بأنها تظهر لنا صغيرة مقدار دينار مع أنها أكبر من الأرض ، فهذا ليس خطأ ولا معلومة غير صحيحة ، ولا يصح أن نطعن في الحواس بذلك ، لأنها أعطتنا الصورة بناءً على مستواها ومن جهتها فقط. لأن الحقائق التي نراها في الواقع لها مستويات من جهة الرائي والقرب والبعد ودرجة النظر وزاويتها، والوسائل التي نرى بها . ثم عندما نقترب منها أو نراها بالمناظير فإن الحواس نفسها تعطينا الصورة الصحيحة لما نراه. فلا يصح أن نفقد الثقة في الحواس وهي التي تعطينا الحقائق حسب قدراتها وزوايا نظرها ولا تخوننا ولا تنفي

الحقائق الموجود . فبالحواس المجردة رأينا الكواكب صغيرة لأنها بعيدة عنا وحسب قدرات العين ، ثم بالقرب أو بالمناظير رأيناها أكثر وضوحا عما كانت عليه وهذا بالحواس المُجهزة بالمناظير مثلا وليس دون حواس. وهذا لا يطعن فيها وإنما يُؤكد الحقائق ويُدعمها ويُصحح الأخطاء إن وُجدت ، ويُوسع مجالات الرؤية بالحواس أيضا. فلا يصح القول بأنها لا ثقة فيها كما قال الغزالي، فقوله غير صحيح وليس علميا أصلا .

ورابعا لاشك أن تشكيك الغزالي في المعرفة الحسية ثم حكمه عليها بعدم الثقة فيها هو موقف غير صحيح وباطل بدليل الشرع والعقل والعلم. فأما من الشرع فقد جعل الله تعالى الحواس من وسائل المعرفة اليقينية ووسائل العلم وحثنا على استخدامها في مختلف مظاهر الكون، وبها نعرف الشرع والحقائق التاريخية والعلمية . فلو كان لا ثقة فيها ما أمرنا الله باستخدامها والاعتماد عليه ، وما جعلها طريقا إلى المعرفة الصحيحة. قال سبحانه : ((وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)(الإسراء: 36))،و((وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل: 78))، و((قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(آل عمران: 137))، و((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(العنكبوت: 20)). فبالحواس نقرأ كتاب الله المسطور وكتابه المنظور ، ولو لم تكن من الوسائل الموصلة إلى اليقين ما أثنى الله عليها وأظهر نعمه علينا بها ، ولما حثنا على استخدامها للوصول إلى حقائق الوحي والتاريخ والعلم.

وأما من الناحية الواقعية فالأمر أشد وضوحا ولا يحتاج إلى مقدمات واستنتاجات لإثبات بطلان موقف الغزالي من المعرفة الحسية. لأن حياة البشر كلها تقوم على الحواس وبدونها لن تستقيم حياتهم على الأرض .

وأما من الجانب العلمي فالأمر أيضا واضحا بيّنا ، فلولا الحواس والعقل ما أنشأ الإنسان علما ، ولا رفع له صرحا. ومن دون الحواس ما كان في مقدور الإنسان أن يحقق الانتصارات العلمية الحديثة المذهلة . ولن يستطيع العقل وحده تحقيق ذلك ، ولا القلب ولا العاطفة . وبدونها لن يتحرك الإنسان من مكانه . وعليه فمن يدعي أنه لا ثقة في الحواس –مع نسبيتها-

فقد أنكر حقائق الشرع والعقل والواقع وتعلق بالأهواء والظنون من جهة ، وهو من جهة أخرى إما أنه مريض، أو صاحب هوى، أو معاند . ولا شك أن الغزالي حكم بالإعدام على الحواس بعدم الثقة فيها لغاية في نفسه ستظهر لنا قريبا بوضوح .

و أخيرا –خامسا- إن قول الغزالي : ((هذا، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس، بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات))[1]. فهو قول غير صحيح ،وفيه تغليط وتضليل للقارئ ، وتقزيم للحواس وقدح فيها بلا دليل صحيح. لأن الحواس كثيرا ما تصحح نفسها بنفسها من الوهلة الأولى ولا تحتاج إلى حاكم العقل أصلا ليتدخل ويقوم بعمليات النقد والتمحيص، والربط والاستنتاج . فهي بنفسها رأت أن الظل قد غيّر مكانه ، مما يعني أنه يتحرك ، وهي التي أعطت هذه المعلومة للعقل . وبنفسها رأت أن الشيء البعيد يبدو صغيرا وكلما اقتربنا منه يكبر ويظهر على حقيقته عندما نقترب منه. وعندما ترى الحواس عودا في الماء معوجا فتستطيع أن تتحقق منه بحاسة اللمس ، فتلمسه وتتأكد أنه ليس معوجا دون تدخل من العقل ليقوم بعمليات معقدة ليُفسر الظاهر، وتستطيع أيضا أن تتأكد بأنه غير معوج بالغطس في الماء والاقتراب منه فتراه أمامها على حقيقته غير معوج.

وليس صحيحا أن العقل هو الذي بيّن عدم الثقة في الحواس ، فهذا لم يحدث، لأن كلا منهما يعتمد على الآخر ومُكمل له . والعقل يتدخل لتفسير الظواهر التي تصله بالحواس ، فيتولى هو تفسيرها والبحث عن العلاقات والأسباب والقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية والبشرية. وهنا هو الذي يبين لنا سبب ظهور مستويات مختلفة للظاهرة الواحدة حسب رؤية العين لها . فهو هنا لم يقل بعدم الثقة في حاسة البصر ولا خطّأها ، وإنما فسرها وبررها ، ورفع ما توهمه الغزالي من وجود تناقض بين الحواس والعقل. وعليه فلا يُمكن أن يحدث تناقض بين حقائق الحواس والعقل والقلب، لأن الحقائق لا تتناقض فيما بينها وإنما زوايا النظر إليها هي التي قد تختلف. لكن الثابت قطعا أنه لا يُمكن أن تتناقض حقائق الحواس والعقل والقلب فيما بينها، لأن هذه المصادر هي في الأصل من غرائز الإنسان وقدراته

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 .

الفطرية التي لا تتغير من جهة، ولا يصح إحداث تناقض ولا نزاع بينها من جهة أخرى .

وكذلك العقل والقلب فكل منهما لن يستطيع الاستغناء عن الحواس في أكثر المواقف وبها يكسبان الحقائق والتجارب، بل ولا حياة لهما دونها. فليس صحيحا قول الغزالي بأنه بطلت الثقة بالمحسوسات، فهذه مغالطة مكشوفة لإقصاء المعرفة الحسية أولا، ثم يُطبقها على المعرفة العقلية ثانيا لينفتح له الطريق لتحقيق غايته التي خطط لها مسبقا حسب مشاهد مسرحيته وفصولها التي تضمنها كتاب المنقذ من الضلال الذي ألفه بعد تصوفه ووضعه على مقاسه الصوفي . ونحن لا ننكر بأن الحواس نسبية وهذا ليس خاصا بها بل ينطبق على الإنسان بكل قدراته ، ولا توجد فيه قوة مطلقة فهذا مستحيل بحكم أن الإنسان كله مخلوق نسبي محدود القدرات . لكن النسبية لا تعني عدم قدرة الإنسان على الوصول إلى الحقيقة ، وإنما تعني أنه ليس كل ما يصل إليه صحيح، وإنما يتضمن الصحيح والخطأ ، وكلما اتبع الإنسان المنهج العلمي الصحيح في البحث والاستدلال كَثُر صوابه وقل خطؤه والعكس صحيح . فكل قدرات الإنسان نسبية بحواسه وعقله وقلبه وهي متداخلة فيما بينها وتعتمد على بعضها وتتكامل فيما بينها، ولا واحد منها مستقل بالمعرفة أبدا ولهذا قال تعالى: ((وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)(الإسراء: 36))،و((وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل: 78)) .

ويُستنتج مما ذكرناه أن نقد أبي حامد الغزالي للمعرفة الحسية كان سطحيا وضعيفا جدا بل غير صحيح ، لأنه كان نقدا مبيتاً وموجهاً لرفض المعرفة الحسية حسب خطة مُعد لها سلفا تبدأ بهدم المعرفة الحسية لتأتي بعدها المعرفة العقلية، ثم ينفتح الطريق أمام الغزالي ليُقرر الطريق الصوفي بمعرفته وعباداته. وبما أن نقده للمعرفة الحسية كان غير صحيح، فهذا يعني أن هذه المعرفة تُوصل إلى اليقين إذا تمت بطريقة صحيحة، مما يدل على أن الرجل سد على نفسه طريقا صحيحا كان من الممكن أن يأخذ بيده إلى اليقين الذي كان يطلبه .

وتبين أيضا أن الغزالي لم يكن يبحث عن الحقيقة في نقده للمعرفة الحسية، وإنما كان يبحث عن كيف يُجهز عليها ويُعدمها لغاية في نفسه. ولهذا

وجدناه قزمها ثم حكم عليها بعدم الثقة من دون دليل صحيح ولا مناقشة علمية موضوعية. وهذا يعني أن الرجل ضل الطريق من الخطوة الأولى في بحثه عن العلم اليقيني أثناء أزمته الفكرية والنفسية . ولذلك فلو أحسن النقد لجنب نفسه الجحيم الذي سيقع فيه ، ولكان خطوة صحيحة نحو الصراط المستقيم، لكن الغزالي انحرف عنه من البداية. فالرجل لم يتبع المنهج العلمي الصحيح في نقده للحواس، ولا أصاب في نقده لها.

ثانيا: نقد موقف الغزالي من البديهيات - المعرفة العقلية-:

بعدما نقد أبو حامد الغزالي المعرفة الحسية وزعم أن العقل دله على عدم الثقة في الحواس ، هاهو هنا يواصل عرض مشاهد مسرحيته التي فصلها على مقاسه الصوفي ، لينقلب على العقل بعدما استخدمه في حكمه على الحواس بعدم الثقة فيها، فقال: ((فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالة !! فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً، واستقراراً، ولا تشكل في تلك الحالة فيها، وثم تستيقظ فتعلم: أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل. فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك، بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا الحاصل لها. ولعل تلك الحالة، ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: " الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهُوا " . فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك: "فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" – سورة : ق : 22 - .

فلما خطر لي هذه الخواطر، وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية. فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال. حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين_))[1].

وأقول: أولا واضح من كلام الغزالي أنه واصل الحكاية لينقلب على العقل الذي استخدمه في نقد الحواس، فانقلب عليه هنا بلا أي دليل صحيح وإنما باحتمال متوهم لم يصل حتى إلى درجة الشك. وموقفه هذا هو الخطوة الثانية في الانحراف عن المنهج العلمي الصحيح في البحث والاستدلال ليقرر غاية في نفسه. وبما أنه من الثابت أن اليقين لا يزول بالشك ، فإن الرجل دفع أقوى يقينيات العقل- البديهيات- وأساس كل العلوم دفعها وكذبها باحتمال نظري مُتوهم لا حقيقة له في العقل ولا في والواقع . وهذا موقف مرفوض ولا يُقبل بأي حال من الأحوال لأربعة أمور أساسية: الأول إن الغزالي دفع البديهيات واليقينيات العقلية باحتمال نظري مُتوهم وفاسد من دون دليل يُثبته. والأمر الثاني هو أن الرجل اتخذ موقفه من البديهيات وهو مريض يُعاني من أزمة فكرية ونفسية قلقة ومُضطربة. فهو موقف يُعبر عن حالة مرضية لا صحية، ومن ثم لا يصح الاعتماد عليه. والأمر الثالث هو أن الرجل ترك اليقينيات العقلية والعلمية المحسوسة واستنجد بالمنامات ، وهذا انحراف عن المنهج العلمي الصحيح في البحث والاستدلال ، ولا يصح جعل المنامات حَكما على حقائق العقول والعلم. والأمر الرابع هو أن الرجل نقض أوهامه التي جعلها حَكما على اليقينيات العقلية عندما عاد وقال أن ثقته في البديهيات عادت إليه في النهاية.

فواضح من ذلك أن الرجل الذي ذكر في بداية المنقذ أنه يطلب العلم اليقيني الحقيقي فإنه قد نقض هنا طلبه عندما شك في البديهيات وأجهز عليها من دون أي دليل صحيح، وإنما استدل على ذلك بتوهماته ورغباته الصوفية. ومتى كانت الرغبات والتمنيات والأوهام أدلة علمية يُستدل بها ويُحكم بها على البديهيات ؟؟ !! . فليس من الشرع ولا من العقل ولا من العلم رد القطعيات واليقينيات بالظنون والأوهام والرغبات ، ولا يفعل ذلك

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 – 10 .

إلا مريض، أو جاهل، أو معاند،أو صاحب هوى . قال تعالى: ((ان يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)(الأنعام: 116))، و((وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)(الجاثية: 24))، و. ((وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)(الإسراء: 36)).

وثانيا إن الرجل بدأ في التغليط والتشكيك بدون دليل صحيح، فزعم أن نفسه بدأت تشككه في المعقولات كقولنا النقيضان لا يجتمعان، والمعدوم لا يكون موجودا بدعوى أننا لا نأمن من أن تكون ثقتنا في العقليات كثقتنا بالمحسوسات ، وقد سبق وأن جاء العقل وكذبها ، ولولا العقل لاستمرت ثقتنا بالحواس، فلعل ما حدث للمحسوسات قد يحدث للمعقولات بوجود حاكم آخر يحكم على تكذيب العقل. وزعمه هذا غير صحيح ، ويندرج ضمن ما خطط له الرجل سلفا وفصّله على مقاسه. لأن الحقيقة هي أن الحواس لم تخطئ ولا كذبت في معرفتها ،ولا العقل كذبها ولا خطّأها وإنما صدقها وفسّر مواقفها واتفق معها كما بيناه سابقا. وبسقوط هذه المقدمة يسقط ما بناه الغزالي عليها عندما شكك في العقل وحكم عليه بعدم الثقة.

وثالثا ثم إن الغزالي بعدما لف ودار وافترى على العقل وتحايل على الناس التجأ إلى المنامات ليُؤيد زعمه باحتمال أن تكون القطعيات العقلية غير صحيحة ويوجد حاكم عليها يُكذبها ، وعندما لم يجد دليلا صحيحا يُؤيد به قوله لجأ إلى المنامات للتشكيك في البديهيات العقلية. وفعله هذا غير مقبول ولا يصح لأمرين أساسيين: الأول هو أن المنامات لها عالمها الخاص بها وهي خليط من أحوال النفس ووساوس الشيطان ولمات الملائكة، وقد جاء عن النبي- عليه الصلاة والسلام- أن الرؤيا على ثلاثة أنواع: رحماني، ونفسي، وشيطاني[1].

والأمر الثاني هو أن الجانب الصحيح من المنامات قائم على رموز وإشارات يعرفها أهل الاختصاص كما هو معروف في تفسير الأحلام ،وهي تُفسر بالواقع وليس العكس ، لأنها تابعة إليه ، وليس هو الذي تابع إليها. ولهذا فهي لا تتناقض معه ، وكثيرا ما تظهر الرؤيا واضحة دون رمزية ، ورمزيتها لا تتناقض مع الواقع، لأنها هي التابعة إليه وليس العكس. ولهذا لا يصح اتخاذ المنامات وسيلة للتشكيك في الواقع وبديهيات العقول للطعن والتشكيك فيها أولا ، ثم الحكم عليها بعدم الثقة ثانيا .

---

[1] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج 8 ص: 15 ، رقم: 3014 .

ورابعا إن مما يشهد على تناقض الرجل وفساد نقده للمعرفتين الحسية والعقلية أنه بعدما حكم عليهما بعدم الثقة ذكر أنه بعدما شُفي من مرضه عادت إليه قناعاته في البديهيات العقلية، بمعنى أن اليقينيات العقلية صحيحة . وهذا يعني قطعا أن نقده وحكمه عليهما لم يكونا صحيحين ، لأنهما لوكانا كذلك ما عادت إليه قناعته بصحتهما والوثوق فيهما ، وإنما ستأتي موافقة لحكمه عليهما بعدم الثقة . فالرجل متناقض مع نفسه وناقض لموقفه الأول من المعرفتين الحسية والعقلية !! ، وأليس موقفه هذا مُؤشر على أن الرجل يُخفي عنا أمرا ما يسعى لإقراره والانتصار له ؟؟ !! .

وخامسا ثم أن الرجل وصل إلى غايته التي خطط لها من البداية وهي تقرير موقف التصوف . فبعدما شكك في البديهيات بتوهم إشكالات وهمية ، لجأ إلى المنامات وشكك بها في الواقع ورد بها قطعيات العقول، ثم أشار إلى أن ذلك يشبه ما يدعيه الصوفية في أنفسهم عند ممارستهم لعبادات الطريق الصوفي فيُشاهدون في أحوالهم أمورا لا توافق المعقولات !!. وهذا اعتراف خطير منه ذكره حاكيا عن الصوفية بأن التصوف يُوصلهم إلى الاعتقاد بما يخالف المعقولات . وهو هنا وإن كان نقل كلامهم بقوله: ((ولعل تلك الحالة، ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات)) فإن الحقيقة هي أنه هو منهم ويقول بقولهم ،وقد صرّح به في كتابه إحياء علوم الدين تلميحا وتصريحا عندما قال: ((ولقد قال بعض العارفين: ("إفشاء سر الربوبية كفر"... ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار))[1]. و((فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر))[2]. ولاشك أن أقواله هذه مع أنها ضده فهي أيضا مزاعم جوفاء ولا يصح أن نترك أدلة الشرع الواقع والعقول والحواس ونأخذ بالمنامات وأحوال الصوفية. وبما أن استدلاله بالمنامات غير صحيح فكذلك استدلاله بأحوال الصوفية لا يصح، لأنه ليس من الشرع ولا من العقل ولا من العلم أن نترك الحقائق الموضوعية والبديهيات العقلية ونتمسك بالظنون والأهواء والخيالات والاحتمالات.

---

[1] الغزالي: مشكاة الأنوار، ص: 1 .
[2] الغزالي: أحياء علوم الدين ، ج 4 ص: 246 .

وأما الحديث الذي استشهد به" الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهُوا " فهو حديث لا أصل له[1] ، وهذا الرجل أمره غريب جدا، فهو يُبرر ويُقرر ما يخالف الشرع دون حرج ثم يحتج به على أفكاره ومواقفه المخالفة لدين الإسلام !!. من ذلك مثلا أن الإسلام أكد على أن كلا من المعرفتين الحسية والعقلية صحيحة وتوصل إلى اليقين إلى جانب المعرفة الشرعية كما بيناه في المبحث السابق، لكن الغزالي أغفل المعرفة الشرعية، وطعن في المعرفتين الحسية والعقلية وحكم عليهما بعدم الثقة ، ثم وجدناه يحتج بحديث وآية قرآنية ليُؤيد موقفه المخالف للشرع أصلا !!.

وسادسا إن الرجل وضع نفسه في أزمة فكرية بلا أي مبرر صحيح كما حكاها هو عن نفسه وقال أنه لم يجد لها حلا ولا علاجا فتحولت إلى داء عضال دام نحو شهرين حتى ألحقه بالسفاسطة . ونحن هنا أمام احتمالين لا ثالث لهما : الأول هو أن هذا الذي حدث للغزالي كان هو السبب في حدوثه وليس له مبررات أخرى مقبولة . والثاني هو أن ما حكاه الرجل عن مرضه هذا هو أمر مُفتعل أضافه إلى تجربته السابقة بعد تصوفه وبلوغه غاياته فأعاد صياغة قصته بنظرة صوفية أضاف إليها تمنياته وأشواقه. وتفصيل ذلك فيما يأتي:

فبالنسبة للاحتمال الأول فهو يعني أن الغزالي قد حدث له فعلاً ما قصه علينا عن أزمته الفكرية والنفسية، فكان هو السبب فيها لقلة علمه وخطأ منهجه في البحث والاستدلال . بدليل أنه بينا أن الرجل نقد المعرفتين الحسية والعقلية بطريقة غير علمية، وأخطأ في نقده لهما فكان نقدا ضعيفا وسطحيا فيما يتعلق بالحواس، ومرفوضا فيما يخص البديهيات جملة وتفصيلا .

وأما الاحتمال الثاني الذي يعني أن ما ذكره الرجل عن مرضه العضال بعد نقده للبديهيات هو أمر مُفتعل أصلاً ، أو أنه أُدخل فيه ما ليس منه، والشواهد الآتية تؤيد ذلك:

أولها : إن النقد السطحي والهزيل وغير الصحيح الذي نقد به الغزالي المعرفتين الحسية والعقلية هو نقد مستبعد جدا بل لا يكاد يُقبل منه، لأنه

---

[1] الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف ، الرياض ، ج 1 ص: 219 ، رقم: 102 .

كان عالما عارفا بالفقه وعلم الكلام والفلسفة، فكيف ينقد تلك المعرفتين بذلك النقد الهزيل والفاسد ؟؟ !! . مما يعني أن في الأمر شيئا ما .

والشاهد الثاني: إن في نقد الرجل للمعرفتين الحسية والعقلية إيحاءً ومُؤشرا قويا يشهد بأن كلامه سريع وموجه لتحقيق غاية في نفسه هي رفض المعرفتين لتقرير المعرفة الصوفية والانتصار لها. بدليل أنه حكم على المعرفتين بعدم الصحة بكلام غير صحيح ، ثم عاد ونقضه وقال إنه يُوثق فيهما بدعوى عودة قناعاته بعد شفائه قلبيا !!، فهذا شاهد قوي جدا على أن الرجل يُمهد للمعرفة الصوفية . وهذا الأمر سيتأكد أكثر فيما يأتي من كتاب المنقذ من الضلال عندما ينقد طرق الطالبين وينتصر للطريق الصوفي من دون أية مناقشة.

والشاهد الثالث: إن قول الغزالي- بعدما أنهى نقده للمعرفتين- بأنه غير قادر على تركيب الأدلة الصحيحة لفقده العلوم الأولية ، هو مبرر غير مقبول ولا يصح أيضا ،ويشهد على أن في الأمر شيئا يُخفيه الرجل . بدليل أنه نقد الحواس وحكم عليها بعدم الثقة من دون أن يقدم دليلا صحيحا، وفي نقده للمعرفة العقلية لم يُقدم دليلا ضعيفا ولا قويا ، وإنما توهم شبهات رد بها اليقينيات والبديهيات العقلية. ثم هو هنا يزعم أنه لم يكن قادرا على تركيب الأدلة الصحيحة للرد بها !! . فالرجل نقض زعمه ، مما يدل على أنه يمهد لتحقيق غاية في نفسه .

ومما يشهد على عدم صحة زعمه أيضا هو أن الإنسان ككائن موجود بكل مكوناته النفسية والعقلية والبدنية هي بنفسها أدلة قطعية تمنع أي شك يتعلق بوجود الإنسان وقدراته. وبها لا يحتاج الإنسان إلى البحث عن الأدلة وتركيبها ليُبرهن على وجوده. فإذا فعل ذلك فهو إما أنه مريض وعليه أن يبحث عن العلاج ولا يتكلم في العلم حتى يُشفى. وإما أنه صاحب هوى فعل ذلك لغاية في نفسه.

والشاهد الرابع: إن مما يدل على أن حكاية المرض العضال أمر مُفتعل أن الرجل قال إنه أُصيب به بعد نقده للمعرفتين الحسية والعقلية، وهذا شاهد قوى ضده ، لأنه عندما نقد المعرفتين كان في كامل قواه العقلية وحكم عليهما بعدم الثقة بجزم وحزم وثقة، ولم تظهر عليه ملامح الاضطراب ولا التردد ولا الترجيح ، ولا الفشل والعجز في نقده للمعرفتين. فمن أين جاءه

ذلك المرض ولماذا ؟؟ !!. فالعكس هو المنتظر، فمن المنتظر أن تغمره السعادة ويشعر بالاطمئنان والانتصار لأنه نجح في نقده للمعرفتين حسب رأيه ، مما فتح له المجال لتقرير المعرفة الصوفية . فلا يصح ولا يُعقل أن يُسبب له نجاحه مرضا عضالا !!!! ، أليس هذا شاهد قوي على أن حكاية المرض العضال أمر مُفتعل أضافه الرجل إلى قصته بعد تصوفة ؟؟.

والشاهد الخامس: إن وصف الغزالي للداء الذي أصابه بقوله: ((فأعضل الداء، ودام قريباً من شهرين)) ، هو شاهد قوي على أن الأمر مفتعل ، لأن المرض العُضال هو ذلك المرض الذي لم يستطع الأطباء علاجه فأعياهم وغلبهم فأُعضل عليهم[1]. فلاشك أن قوله غير صح لأن المرض الذي يدوم نحو شهرين لا يُوصف بأنه عضال لأن هذه المدة غير كافية تماما لفحص المرض وتناول العلاج ،وزيارة الأطباء المختصين، فلا ريب أن الأمر يستغرق مدة طويلة لكي يتبين أن المرض عضال أم لا . وبما أن الغزالي وصف داءه الذي دام نحو شهرين بأنه عضال دَلّ هذا على أن الأمر مُفتعل وصفه الغزالي بذلك لغاية في نفسه .

والشاهد السادس: إن نقده الضعيف والهزيل وغير الصحيح للمعرفتين الحسية والعقلية هو شاهد قوي على أن الرجل لم يبذل جهدا كبيرا ولا كل قدراته لنقدهما، ولا أولاهما كبير اهتمام . فلو أجهد نفسه في نقدهما بصدق وإخلاص وعلمية ما حَكم عليهما بعدم الثقة أبدا. وبما أنه حكم عليهما بالإقصاء فهذا يعني أن الأمر مُفتعل برمته ، وموقف كهذا لا يُحدث أزمة في الفكر ولا في القلب ولا فيهما معا، ولا يُؤدي إلى مرض عضال. لأن الأزمات الفكرية والنفسية لا تحدث لأمر سطحي أو مُفتعل، وإنما تحدث لأمر حقيقي صاحبه يُعاني منه في أعماقه ويتعذب بسببه، فيُحدث له الوساوس والقلق ويُنغص عليه حياته ليلا ونهارا. والعالم الذي يُعاني من ذلك يبذل أقصى جهده ،ويحرص كل الحرص على نقد الأفكار وتمحيصها وتقليبها من كل جوانبها بحثا عن الحقيقة، وتظهر عليه أيضا مظاهر المعاناة في ممارسته للنقد العلمي: دقة، وتمحيصا، وضبطا ،وتوثيقا ، ولا يكون نقده ضعيفا هزيلا سطحيا سريعا. وبما أن الغزالي لم يكن هذا حاله في نقده للمعرفتين من جهة، وذكر أنه تعرض لمرض عضال بسبب موقفه من المعرفتين من جهة أخرى، فإن هذا يُرجح بأن ما ذكره عن أزمته

[1] الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، ج 6 ص: 31 .

الفكرية ومرضه العضال غير صحيح، وإنما هو أمر مُفتعل ألحقه بقصته بعدما تصوف لغاية في نفسه .

وأما إذا قيل: هل يُعقل أن يُقدم أبو حامد الغزالي على افتعال ما ذكرتموه عنه ؟؟ !! . فأقول: قد يكون ما أُدخل في قصة الرجل قد حدث خطأ ونسيانا، لكن يبقى احتمال أنه تعمد ذكر ذلك أمرا اردا، وهذا يُمكن أن يفعله الغزالي بدليل ما ذكرناه من شواهد تؤيد الاحتمال الثاني، ولأن الغزالي بعدما تصوف أصبح يقول بالتقية الصوفية ودافع عنها واعترف بممارستها ، وبها أصبح يعتقد بمقولة: الغاية تُبرر الوسيلة. وقد طبقها باستخدام مختلف طرق التضليل والتحريف في كتابه إحياء علوم الدين ،و قد سبق أن بينا ذلك في نقدنا لهذا الكتاب[1].

ثم أن الرجل قال : ((ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة))[2].

وأقول: أولا واضح من كلام الغزالي أنه نقض حكمه على المعرفتين الحسية والعقلية بعدم الثقة ، فهو ناقشهما وزعم أنه أثبت عدم الثقة فيهما، لكنه عاد وقال أنه عندما شُفي من مرضه "العضال" عادت إليه قناعته فيهما، وهذا يعني أن نقده لهما لم يكن صحيحا، والغاية منه تقرير المعرفة الصوفية التي تقوم أساسا على القلب لا على الحواس والعقل ، ولا على الشرع .إنه قررها بدعوى أن الله تعالى قذف في قلبه نورا ، فعادت إليه قناعاته من دون أن يذكر أي دليل صحيح يُثبت صحة زعمه هذا .

وثانيا إنه لا يصح الاحتجاج بالعواطف والمواجيد والأذواق الباطنية من دون أدلة صحيحة من الشرع، أو العقل ، أو الواقع، أو العلم . لأنه في إمكان أي إنسان أن يحتج بها ويرد بها كل الأفكار التي تخالفه. فهي محكومة بموازين الشرع والعقل والعلم ، فإذا خالفتها فهي غير صحيحة قطعا، وهي ليست حجة بذاتها ما لم تعتمد عليها.وهذا الذي وقع فيه الغزالي اغفل الشرع، وشكك في المعرفتين الحسية والعقلية وحكم عليهما بعدم

---

[1] أنظر: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 11 .

الثقة، ثم احتج علينا بقلبه بدعوى أنه الله قذف فيه نورا !! . وهذا سواءً كان صحيحا أم لا فليس بحجة ولا يصح الاستدلال به، ولا تقوم به بينة، ومن حقنا رده لأن الرجل أحالنا على مجهول ولم يقدم أي دليل صحيح من الشرع، ولا من العقل ،ولا من العلم يُثبت زعمه من جهة ، ويُمكن لغيره أن يرده ويُكذبه ويحتج عليه بنفس الطريقة من جهة أخرى .

وثالثا إن الرجل نقد المعرفة العقلية وحكم عليها بعدم الثقة بعيدا عن الشرع ، فقد أغفله ولم يرجع إليه ولا استخدمه في نقده لها ، وخالفه عندما حكم عليها بعدم الثقة . مع أن العقل هو من وسائل المعرفة الصحيحة والهامة التي اعترف بها الشرع وهو من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومن مظاهر الهداية الفطرية فيه ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(الروم: 30))، و((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)(الحج: 8)). وهو مناط التكليف ولهذا رُفع القلم عن المجنون حتى يعقل أو يفيق . فبدونه لا يستطيع الإنسان أن يُميز الحق من الباطل، ولا أن يقرأ كتاب الله ويلتزم به، ولا أن يتولى عمارة الأرض وعبادة الله تعالى التي كلّفه بها. ولهذا أمرنا الله تعالى باستخدام العقل والاحتكام إليه في آيات كثيرة جدا، وعاب على الذين يعطلون عقولهم ، وألحقهم بالأنعام ، وجعلهم من شر الدواب ، قال سبحانه : ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ)(الأنفال: 22))، و((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(الفرقان : 44)) . فالمعرفة العقلية هي معرفة صحيحة ومن وسائل اكتساب العلم التي أقرها دين الإسلام، فلو عاد الغزالي إلى الشرع ما قرر خلافه ، ولا حكم على المعرفة العقلية بعدم الثقة .

ورابعا إن مما يشهد على عدم صحة حكاية النور المزعومة ، أنها قامت على مُؤشرات تشهد على أن الرجل أخرج الحكاية على مقاسه لغاية في نفسه. منها أن موضوع المعرفتين الحسية والعقلية ليس مشكلة أصلا ، ولا يتطلبان وجود ذلك الداء ولا النور، بدليل الشواهد الثلاثة الآتية: أولها إن مناقشة الغزالي للمعرفتين كانت سطحية وضعيفة وسريعة ، مما يعني أنه لم يتعب كثيرا في مناقشتهما ، ولا أدخلتاه في أزمة وردود ونقاشات عميقة ، مما يدل أن الأمر كان عنده واضحا وسهلا ،ولم يُحدث له أية أزمة فكرية

ولا قلقا نفسيا، فمن أين يأتي هذا المرض " العضال " الذي يأتي بعده النور المزعوم ؟؟ .

والشاهد الثاني: إن حكاية الرجل عن نفسه بأنه أُصيب بمرض " عضال " لم تثبت، لأنه سبق أن بينا أن مدة نحو شهرين من الداء لا تجعله عضالا. مما يعني أن الرجل يُخطط ليصل إلى حكاية النور .

والشاهد الثالث : بما أنه تبين أن موقف الغزالي من المعرفتين الحسية والعقلية مخالف للشرع، وبما أنه أغفل المعرفة الشرعية كوسيلة من وسائل المعرفة عن قصد لأنها كانت بين يديه ، وبما أنه فعل كل ذلك من أجل التصوف ، فإن الله تعالى لا يكافئ إنسانا فعل ذلك بنور من عنده مكافأة عن انحرافه وأخطائه ، ليزداد بعده بعدا ويرتمي في أحضان التصوف .

والشاهد الأخير- الرابع - مفاده أن الداء "العضال" الذي زعم بالرجل أنه ألم به هو داء لا مبرر لوجود أصلا. بدليل أنه نقد المعرفتين الحسية والعقلية وحكم عليهما بعدم الثقة ، وأنه لم يتوسع في نقدهما ،ولا وجد في ذلك صعوبة، ولا أحدث له قلقا ولا اضطرابا. وهذا يعني أنه نقدهما وأبطلهما بسهولة ، لكنه ما إن أنهى نقده لهما حتى قال بأنه لم يقدر على تركيب الأدلة ، وأنه أُصيب بداء "عضال" ألمّ به ، وهذا أمر غريب وعجيب وغير مقبول !! . فلا يعقل ولا يصح أن يحدث له ذلك ، فمن أين ، ولماذا يحدث له ذلك ؟؟ إنه لا توجد أية أسباب ولا مقدمات صحيحة تجعل الرجل يمرض بذلك الداء بعدما أنهى مناقشته السهلة والسريعة وحكم على المعرفتين بعدم الثقة !! . إنه كان في صحة جيدة وبكل قواه العقلية والنفسية، فلا اضطرب ولا فشل في مناقشته وحكمه على المعرفتين، ولا شغلته قضية لم يجد لها حلا. أليس هذا يُرجّح بأن الرجل تمارض ولم يمرض ليأتي بحكاية النور الإلهي الذي يعني القول بالمعرفة الصوفية- الكشف- ؟؟ .

وأخيرا- خامسا- : إن مما يبطل قوله بحكاية النور أيضا أنه مخالف للشرع والواقع في تلقي العلوم . فلا يوجد إنسان يتلقى العلم بنور مباشر من الله تعالى، لأن الأنبياء يتلقون من الله بالوحي، وغير الأنبياء يتلقون العلوم بالتعلم فقط بدليل قوله تعالى:((وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل: 78)) ،

و((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(الجمعة: 2)). فالرسول علم الصحابة بالتعلم وليس بالنور المزعوم. وأما النور الذي تكلم عنه الشرع فهو نور الإيمان والتزكية ((أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (الأنعام : 122))، فهذا نور الإيمان وليس نور اكتساب العلوم فقد كان الصحابة أتقياء صالحين منورين بدليل الشرع والتاريخ ومع ذلك تلقوا العلم بالتعلم على يد النبي-عليه الصلاة والسلام- ، وهم علموا التابعين بنفس الطريقة. وأما قوله تعالى: ((وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(البقرة: 282))، فهو يتفق مع ما قلناه ، لأن الله تعالى يُعلِّم من يتقيه، ومن التقوى طلب العلم: قراءة وبحثا وسعيا في طلبه، وهذا الذي أمرنا به الله ورسوله . فهو علم مشروط بالطلب وليس علما نورانيا يُقذف في القلب من دون تعلم وطلب كما زعم الغزالي .

وأما من الواقع فهو يشهد حاضرا وماضيا أن كل البشر يتلقون العلوم بالتعلم وحتى ما يرياه بعض الناس حدسا وإلهامات فهي في الحقيقة خواطر وأفكار تأتي نتيجة بحوث وممارسات وانشغالات سابقة فتظهر فجأة وكأنها دون مقدمات ، لكن الحقيقة خلاف ذلك . وهي من جهة أخرى محدودة جدا ولا تلغي الأصل في التعلم المباشر لتلقي العلوم ،ولا يوجد إنسان أصبح عالما بمجرد الإلهام أو الحدس ، فهي طريقة نسبية ضمن طرق التعلم الأخرى وكلها تتطلب التعلم والبحث والاجتهاد.

ولذلك فقول الغزالي بذلك النور باطل ولا يصح ، ولتصديقه يجب أن يقيم الأدلة الصحيحة على إمكانيته أولا ، ثم على حدوثه في الواقع بالشواهد المادية ثانيا . ولن يستطيع الإتيان بذلك قطعا لأمرين أساسيين: الأول لِما ذكرناه في ردنا على قوله بحكاية النور. والثاني هو أن حصيلة الغزالي العلمية التي دونها في الإحياء - هو أكبر وأهم كتاب عنده – تشهد على بطلان زعمه . فقد تضمن أخطاء وانحرافات وخرافات كثيرة جدا تُعد بالعشرات ذكرتُ جانبا منها في نقدي لإحياء علوم الدين . فلو كان تلقى معارفه بنور إلهي ما وقع في تلك الأخطاء والانحرافات ، وما نقل أكثر من نصف الإحياء من كتب أهل العلم .

وأما قوله بأن من أنكر الكشف فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وأنه من الجود الإلهي في بعض الأحايين))[1]. فهو كلام مرفوض ولا يصح الاستدلال به لأن العلم لا يعرف ولا يُتحصل بالتمني ، ولا بالترجي ،ولا بالرغبات، لأنه يمكن لغير الغزالي أن يعكس الأمر ويقول: إن الله تعالى غلق كل أبواب العلم إلا من بابين: باب الوحي ، وباب الحواس ومن يطلبه من غير هذين البابين فلن يظفر به أبدا، وهو من الواهمين والفاشلين !! .

وإذا فرضنا جدلا صحة قول الغزالي فلابد من إقامة الدليل أولا بإمكانية حدوثه من الشرع ، ثم إقامة الدليل على حدوثه في الواقع ثانيا. وهذا لم يفعله الرجل ولن يستطيع تحقيقه. ونحن نعلم شرعا وعلما أن زعمه غير صحيح ، ولن يتحقق له بما بيناه عندما تكلمنا عن التعلم وطرقه.

والراجح أن حكاية النور الذي ذكر الغزالي أن الله تعالى قَذفه في قلبه فعادت إليه ثقته بالبديهيات العقلية هي غير صحيحة، وإنما هي نوع من الإسقاط الصوفي بعدما مارس الغزالي عبادات التصوف أكثر من عشر سنوات فانعكست على نفسه بمواجيدها وأحوالها وهلوساتها وتلبيساتها ،وقد سماها الغزالي كشفا وأنوارا. فأسقط هذه الأحوال وآثارها على حالته عندما حكى لنا نقده للمعرفة العقلية، ليجد مبررا يُعيد به ثقته بالبديهيات ويستدل بها على المعرفة القلبية لا الحسية ولا العقلية ليُدخل التصوف حَكما وطريقا إلى المعرفة اليقينية .

وبذلك يتبين أن نقد أبي حامد الغزالي للمعرفة العقلية- البديهيات – كان ناقصا وذاتيا ، وسطحيا ضعيفا هزيلا من جهة، وغير صحيح ومُتعمد انتصارا للمعرفة الصوفية من جهة أخرى. وأن ما حكاه الرجل عن مرضه العضال والنور الذي قُذف في قلبه لم يثبت ، والراجح أن ذلك مما ألحقه بقصته بعدما تصوف وأخرجها من جديد بمقاسٍ صوفي.

وإنهاءً لهذا الفصل- الثاني- يتضح منه أولا أن الغزالي نقد المعرفتين الحسية والعقلية بمنهج غير علمي ، وإنما نقدهما بخلفية صوفية مُبيتة انتصارا للمعرفة الصوفية. فرد حقائق الحواس بمبررات ضعيفة جدا، وأخرى غير صحيحة أصلا. وحكم على البديهيات بعدم الثقة بالتوهمات

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 11 .

والاحتمالات الفاسدة ، ومن دون أي دليل صحيح ، ثم عاد ونقض موقفه منهما عندما زعم أن نورا قُذف في قلبه أعاد له ثقته بهما .

وثانيا إن الغزالي عرّف العلم اليقيني وعظمه ونوّه به، وذكر شروطه ، لكنه لم يتبع المنهج الصحيح الذي يُوصله إليه . فقد اتضح أن الغالب عليه أنه لم يطلبه بشرع صحيح، ولا عقل صريح، ولا علم صحيح، وإنما طلبه غالبا بالظن والتوهم ، والتلبيس والتمني . فأنى له أن يصل إلى العلم اليقيني الحقيقي ؟؟.

وأخيرا – ثالثا – إن من الملاحظ على نقد أبي حامد الغزالي أنه ذكر ثلاثة وسائل للمعرفة ، هي: الحسية، والعقلية، والصوفية ، فانتقد الأولى والثانية وانتصر للثالثة. لكنه لم يذكر الطريق الشرعي من بين تلك الوسائل، ولا استخدمه في نقده للمعرفتين الحسية والعقلية، ولا وزن به المعرفة الصوفية. فهل نسيه وهو بين يديه ؟؟. أم أنه تناساه وأغفله لغاية في نفسه ؟؟، وإذا كان كذلك فلماذا أغفله ؟؟ هذا ما سيتبين تدريجيا مما يأتي من كتابنا هذا !! .

الفصل الثالث

نقد مواقف الغزالي في نقده لأصناف الطالبين للحق أثناء بحثه عن اليقين

أولا: نقدنا للغزالي في حصر طرق الطالبين في أربعة.
ثانيا: نقدنا للغزالي في موقفه من علم الكلام وأهله.
ثالثا: نقدنا للغزالي في موقفه من الفلسفة والفلاسفة.
رابعا: نقدنا للغزالي في موقفه من الإمامة الشيعية وأهلها.

نقد مواقف الغزالي في نقده لأصناف الطالبين للحق أثناء بحثه عن اليقين

بعدما أنهى أبو حامد الغزالي نقده للمعرفتين الحسية والعقلية كما بيناه سابقا شرع في نقد مصادر ومسالك الطالبين للحق ضمن مسيرته في طلب اليقين ، فحصرهم في أربعة أصناف كل منها يمثل مذهبه ومعتقده. ومن تقسيمه هذا يكون نقدنا له.

<u>أولا: نقدنا للغزالي فى حصر طرق الطالبين فى أربعة:</u>

ذكر الغزالي أنه بعدما شُفي من مرضه انحصرت أصناف الطالبين عنده في أربع فرق، وكل طالب من ورائه مذهبه ونحلته، فنحن أمام الطالبين بمناهجهم ومذاهبهم، فقال: ((انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

1 - المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

2 - الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

3 - الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

4 - الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته))[1].

وأقول: يُلاحظ على الغزالي أنه حصر طرق الطالبين ومذاهبهم في أربعة أصناف، وأغفل طريقين: الأول هو طريق الشرع – الوحي، الكتاب والسنة- أغفله هنا كما أغفله عندما نقد وسائل المعرفة. وهذا خطأ فادح وغير مقبول سواء تعمد إغفاله أم لا . إنه طريق الله الذي لا يضل من أتبعه أبدا، و صراطه المستقيم الذي لا يجوز إغفاله ولا إسقاطه أبدا، قال سبحانه: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام : 153)) وهذا الأمر سنعود إليه لاحقا

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 12 .

إن شاء الله تعالى، لأن الراجح أن الرجل تعمد إغفال طريق الوحي لغاية في نفسه .

والطريق الثاني هو منهج أهل الحديث، إنه أغفله مع أن أهله أكثر الطوائف صوابا والتزاما بالشرع ، ومذهبهم أصح المذاهب منهجا ومضمونا. وأصحاب الحديث معروفون بمنهجهم ومواقفهم قبل الغزالي وفي زمانه وبعده، وهم من أكثر الناس ردا على المتكلمين ومنهم الغزالي نفسه[1]. فلماذا أغفلهم مع أنهم أفضل الفرق الإسلامية ؟؟، وفي المقابل ذكر فرقا منتسبة إلى الإسلام كالمعتزلة ،والصوفية ،والفلاسفة ،والشيعة الإمامية وهم من أكثر الفرق ضلالا وانحرافا عن الشرع والعقل والعلم. فهل يُعقل أن تذكر هذه الفِرَق ومذاهبها ولا يذكر الإسلام ولا الفرقة الأكثر صوابا والتزاما به ؟؟ إنه لا يعقل ولا يصح فعل ذلك بأي حال من الأحوال ، مما يعني أن الرجل قد يكون تعمد فعل ذلك لأمر خطط له سلفا ، سنحاول كشفه في الفصل الخامس .

وأما إذا قيل : ربما يكون الغزالي قد ألحق أهل الحديث بالمتكلمين. فأقول: إن كان فعل ذلك ففعله هذا لا يصح ، لأنه من الخطأ التسوية بين أصحاب الحديث من جهة ، وبين المعتزلة والأشاعرة والماتُريدية من جهة أخرى. لأن أهل الحديث يختلفون عن هؤلاء بكلامهم منهجا ومضمونا، ويختلفون عنهم ويتناقضون معهم في أكثر أصولهم ، خاصة مع المعتزلة. ولأن نقد الغزالي للمتكلمين لا يصدق على أصحاب الحديث . ولهذا فالصحيح أن الغزالي قصد بالمتكلمين : والأشاعرة والماتُريدية، فهم الذين أكثروا من تعاطي علم الكلام، وأما أهل الحديث فقد تعمد إغفالهم لغاية في نفسه.

ثانيا: نقدنا للغزالي في موقفه من علم الكلام وأهله:

عندما شرع الغزالي في نقد علم الكلام مضمونا ومسلكا وأتباعا تبين أنه يقصد تحديدا :متكلمة الأشعرية والماتريدية من أهل السنة ولا يقصد متكلمة أهل الحديث وكلامهم. فمن الانتقادات التي انتقدهم بها أنه قال: ((قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة،

[1] عن منهج أهل الحديث ومواقفهم أنظر كتابنا: منهج أهل الحديث في الرد على المتكلمين . وكتابنا: الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث ، والكتابان منشوران ورقيا وإلكترونيا .

ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً))[1].

وأقول: نقده هذا يصدق على علم الكلام الأشعري والماتُريدي ولا يصدق على علم الكلام كله ، ولا على أصحاب الحديث . فبالنسبة لعلم الكلام فهو كعلم يُمكن تأسيسه على الوحي الصحيح ، والعقل الصريح ، والعلم الصحيح بعيدا عن الاعتزال والأشعرية والماتُريدية. وبهذه المنطلقات تكون أُسسه يقينية قطعا وتتفق تماما مع البديهيات ، وقادرة على انقاذ الشاكين والحيارى على اختلاف أحوالهم إن صدقت نواياهم وصحت مناهجهم. وسيأخذ بأيدهم ويُوصلهم إلى الصراط المستقيم واليقين الصحيح . فكان على الرجل أن لا يعمم موقفه على علم الكلام كله ، فيرفضه بنقده لبعض الاتجاهات المكونة له . فكأنه لم يكن يريد أن يُفرق بين علم الكلام كعلم وبين اتجاهاته المتعددة، ولا بين طوائفه المنتمية إليه ومدى سلامة منهج بعضها وقوة دليلها، فجمعهم كلهم ونقدهم بنقد واحد أبعدهم به من طريقه .

وأما بالنسبة لأصحاب الحديث فلا يصدق عليهم نقد الغزالي لعلم الكلام وأهله ،ولا على الكلام الذي كان عندهم أيضا. وقد تجلى علمهم في بدايته عند أحمد ابن حنبل في الرد على الزنادقة، والبخاري في خلق أفعال العباد والرد على الجهمية، والدارمي في الرد على الجهمية، والنقض على المريسي ،وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ، والسجزي في رسالته إلى أهل الثغر، وابن جرير الطبري في كتاب: التبصير في معالم الدين[2]. وقد كانت لهم روائع في ردودهم على مخالفيهم تميزت بسلامة المنهج وقوة الدليل ليس هنا موضع ذكرها[3]. ثم تطور علم الكلام عند أهل الحديث

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .

[2] عن هؤلاء وغيرهم انظر: عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص: 364 .و ابن تيمية: درء التعارض، ج 2 ص: 162.و جمال بادي : الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب سيّر أعلام النبلاء للذهبي ، ط1 الرياض ، دار الوطن ، 1416، ج 1 ص: 32 .

[3] ذكرت منها عدة شواهد في كتابنا : منهج أهل الحديث في الرد على المتكلمين ، منها مثلا مناقشة احمد بن حنبل للجهمية ، في إنكارهم علو الله تعالى و زعمهم أنه في كل مكان ، فذكر أنه يُقال للجهمي : أليس كان الله و لا شيء معه ؟ ، فيقول : نعم ، فيُقال له : عندما خلق الله تعالى الكون ، خلقه في نفسه ، أم خارجا عنه ؟ ، فليس أمامه إلا ثلاثة أقاويل ، أولها أنه يزعم أنه تعالى خلق خلقه في نفسه ، فيكون قد كفر ، لأنه زعم أن الجن و الإنس و الشياطين في نفسه .و ثانيها أنه يقول : خلقهم خارجا عن ذاته ثم دخل فيهم ، فيكون قد كفر أيضا ، لأنه ادعى

وتبلور وتقوى أكثر مما كان عليه على يد الشيخ تقي بن تيمية وتلامذته ومن جاء بعدهم من أصحاب الحديث إلى يومنا هذا . فكان هؤلاء هم رواد مدرسة المنقول والمعقول في مقدمتهم الشيخ تقي الدين ابن تيمة وتلميذه النجيب ابن قيم الجوزية .

بذلك يتضح أن الغزالي نقد الكلام وأهله نقدا ناقصا وسريعا ، وفاته أو أغفل جانبا صحيحا منه كان يُمكن أن يأخذ به إلى الطريق المستقيم ليوصله إلى اليقين الصحيح القائم على الوحي والعقل والعلم . لكن الرجل اكتفي برفض علم الكلام بذلك الانتقاد، وبحالته التي كان عليها ليواصل تطبيق ما خطط له سلفا حتى يصل إلى الطريق الذي اختاره من دون أن يقدم للقارئ دليلا صحيحا واحدا يُثبت صحة اختياره !! .

ثالثا: نقدنا للغزالي في موقفه من الفلسفة والفلاسفة:

توسع أبو حامد الغزالي في نقده للفلسفة وأهلها ضمن نقده لطرق الطالبين بحثا عن اليقين . فنقدها في عدة مواضع، وكفر فلاسفتها ، وأبعدها من طريقه وحكم عليها بعدم قدرتها على إنقاذه مما يُعانيه لتأخذ بيده إلى اليقين. فهل أصاب في نقده لها ؟، وهل الفلسفة بذاتها وكل اتجاهاتها غير قادرة على الوصول إلى اليقين الصحيح ؟؟. وهل كان الغزالي موضوعيا في نقده للفلسفة وأهلها ؟؟.

من ذلك أنه كفّر الفلاسفة بقولهم في الإلهيات ، فقال: ((وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ... ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر. ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب التهافت أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم: إن الأجساد

أنه تعالى دخل في كل مكان وحش و قذر . و ثالثها أنه يقول : خلقهم خارجا عن نفسه و لم يدخل فيهم ، فيكون قد خرج عن قوله كلية ،و قال برأي أهل السنة لأن ذلك هو قولهم . ومنها مناقشة ابن جرير الطبري (ت310هـ) للمتكلمين المؤولين للصفات ، كتأويلهم قوله تعالى : ((و جاء ربك و الملك صفا صفا)) ، فقالوا : جاء أمر بك . فناقشهم في زعمهم ،و بيّن لهم أن قولهم هو تعطيل للآية و تحريف لها ، لأن الآية قالت صراحة : ((و جاء ربك)) ،و لم تقل : و جاء أمر ربك . ثم توسع في مناقشتهم و طالبهم بالدليل في حملهم نزول الله تعالى و مجيئه على صفات البشر ،و قال : إنهم ادعوا أن ذلك –أي النزول و المجيء- لا يجوز على الله ، لأنه من صفات الأجسام ، وردّ عليهم بأن ما ذهبوا إليه غير صحيح ، لأن الجسمية لا تجوز في حقه تعالى ، و عليه فإن إثبات صفاته كالنزول و المجيء ليس تجسيما ، لأن صفاته تعالى لا تُشبه صفات مخلوقاته . خالد كبير علال: منهج أهل الحديث في الرد على المتكلمين ، دار كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2012 ، ص: 64 .

لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية. ولقد صدقوا في إثبات الروحانية: فإنها كائنة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به. ومن ذلك قولهم: " إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات " ، فهو أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه: " لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ "- سبأ : 3 - . ومن ذلك قولهم: بقدم العالم وأزليته، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل))[1].

وأقول: لا شك أن من يقول بذلك فقد كفر بدين الإسلام، لأنه خالف أمورا معروفة من الشرع بالضرورة. لكن حكم الغزالي بتكفير هؤلاء لا يصدق على كل الفلاسفة، وإنما يصدق على الذين قالوا منهم بما حكاه عنهم من القدماء والمُحدَثين. ويصدق أيضا على كل من قال بقولهم من مختلف طوائف أهل العلم والناس جميعا. والغزالي بهذا الحكم قد أعدم الفلسفة وأهلها في زمانه ،وأبعدها من طريقه ليواصل نقده لطرق الطالبين. لكن الرجل مع ذلك فإنه لم يقطع اتصاله بالفلسفة وأصحابها فقد ظل على اتصال بها ولم يستطع التخلص منها ،ووظفها كثيرا في ردوده على معارضيه، وقد تضمن كتابه إحياء علوم الدين كثيرا من الفلسفة وأقوال الفلاسفة. بل أنه جعل نفسه خادما للمنطق الصوري- الأرسطي- ، فروّج له بالباطل وأدخله في علم أصول الفقه وزعم أنه ضروري له[2]. ولهذا رُوي أن تلميذه المتكلم الفقيه أبا بكر بن العربي كان يقول: ((شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر))[3]، وفي رواية أنه قال: ((شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع))[4].

ويُلاحظ على الغزالي أنه في تكفيره للفلاسفة اعتمد على الشرع فأعدمهم به وأبعدهم من طريقه، مع أنه هو شخصيا قد خالفه كثيرا في كتابيه المنقذ من الضلال ، وإحياء علوم الدين، وقرر ما يهدم الشرع صراحة[5]. وهو في كتابه المنقذ الضلال قد أبعد دين الإسلام وأغفله عندما تكلم عن وسائل المعرفة وطرق الطالبين، وقرر ما يُخالفه في كثير من المواضع ، لكنه هنا استدعاه وكفّر به الفلاسفة لغاية في نفسه. فليته التزم به

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 22 .

[2] ذكر ذلك في مقدمة كتابه : المستصفى في علم الأصول . وفعله هذا لا يصح ، وهو جناية في علم أصول الفقه. وليس هنا مجال الرد عليه وإظهار فساد المنطق الذي انتصر له. وقد توسعتُ في نقده من مختلف جوانبه في كتابنا: جنايات أرسطو في حق العقل والعلم .

[3] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 4 ص: 66 .

[4] الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ج 19 ص: 327 .

[5] بينا ذلك بعشرات الشواهد في كتابنا: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

هو أولا، واتخذه ميزانا في نقده لوسائل المعرفة وطرق الطالبين ثانيا، وتمسك به طريقا إلى اليقين بدلا من التصوف ثالثا . لكن الرجل لم يفعل ذلك، مما يعني أن تكفيره لهؤلاء الفلاسفة باسم الإسلام كان من باب: الغاية تُبرر الوسيلة انتصارا للتصوف لا لدين الإسلام !! .

علما بأن قوله إن هؤلاء الفلاسفة قالوا :((إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية))[1]. هو كلام غير دقيق ، بل لا يصح لأن أرسطو وأصحابه المشائين لا يقولون بالمعاد الأخروي أصلا، لأنهم يقولون بأزلية العالم وقد ذكره عنهم الغزالي وكفرهم به[2]. ومن يقول بذلك لا يقول بالمعاد الأخروي ولا يعتقد به لأنه مستحيل الحدوث لكون العالم أزلي لا بداية له ولا نهاية عندهم، فلا خلق لآدم ، ولا وجود للجنة ولا لنار، ولا نهاية للعالم ليكون المعاد الأخروي .

فهؤلاء لا يقولون بحشر الأجساد ولا الأرواح ،ولا معاد أخروي عندهم ولا حشر. وإنما يزعمون أن الإنسان عندما يموت يتخلص من جسمه وتتصل روحه بالعقول الإلهية منها العقل الفعال وهناك يكون خلودها ، وهذا قاله أبو يعقوب الكندي، وأبو نصر الفارابي، وابن سينا ، وابن ماجة ، وابن رشد[3]. فالغزالي أخطأ فيما حكاه عنهم .

ومما قاله الغزالي في نقده لعلوم الفلسفة موقفه من الرياضيات وعلاقتها بالدين ، أنه قال : ((أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتهم بعد فهمها ومعرفتها))[4].

وأقول: قوله هذا غير دقيق وفيه خلل ونقص ،لأن علم الحساب له مكانة هامة في دين الإسلام ومعترف به ومطلوب وضروري ، بل هو من العلوم التي حث الشرع على طلبها. قال تعالى: ((وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً)(الإسراء: 12)). والشاهد

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 22 .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 22 .

[3] للتوسع في ذلك أنظر كتابنا: مخالفة الفلاسفة المسلمين لطبيعيات القرآن الكريم ، مؤسسة الوراق، الأردن ، 2014 ص: 97 وما بعدها.

[4] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 19 .

على ذلك أيضا أنه لا ميراث دون حساب، وعلم الفرائض علم قائم بنفسه ولا يفهمه ولا يتقنه جيدا إلا من كان بارعا في الحساب. فحكم الغزالي غير سليم بل ولا يصح . ولا شك أن الغزالي يعرف ما قلناه وهو فقيه شافعي لكن لماذا قال ذلك ؟؟، فهل يندرج ضمن تقزيمه للشرع وإبعاده من الحياة انتصارا للتصوف ؟؟ .

ثم أن الرجل عندما تكلم عن الفلك والخسوف والكسوف وسير حركة الشمس والقمر وعلاقة ذلك بالحساب وطعن بعض الناس فيهما وفي الفلاسفة كان مما قاله : ((ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية)) [1].

وأقول: قوله هذا غير صحيح لأن القرآن الكريم مملوء بعلم الفلك وقد صُنفت فيه حديثا كتب مستقلة . وتلك العلوم متضمنة أيضا لكثير من الأمور الدينية المتعلقة بعلم الفلك والحساب . ولهذا فإن الصواب هو أن العلاقة قوية بين تلك العلوم ودين الإسلام . والقرآن شاهد بقوة على ذلك، فقد تضمن حقائق علمية فلكية كثيرة ومُذهلة ، تتعلق بعلم الفلك نشأة وتطورا ومصيرا، كقوله تعالى: ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(فصلت : 129))، و((هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(يونس : 5)) . فعجبا من أبي حامد الغزالي كيف سمح لنفسه أن يقول: ((وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية))[2] ؟؟ !! ، فهو قول غير صحيح دون شك . فلماذا قال ذلك ؟ وهل موقفه هذا يندرج ضمن إغفاله للشرع وإقصائه وتقزيمه كما فعل في مواضع أخرى من كتابه ؟؟.

ومن ذلك أيضا أنه قال : ((وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان، وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه. وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان،

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 20 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 20 .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات بزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات، ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل " أ " " ب " لزم أن بعض " ب " " أ " أي ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذه بأنه الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين، فيستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية. فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه))[1].

وأقول: قوله هذا غير صحيح في معظمه، لأنه أولا إن الرجل ذكر المنطقيات لكنه تكلم عن المنطق الصوري-الأرسطي- وذكر أمثلة منه ولم يتكلم عن المنطقيات التي أشار إليها. والمنطقيات تشمل الاستقراء ، والسفسطة، والخطابة، ومختلف أنواع القياس الجزئي – كالتعليل والتمثيل- ، وأسس التفكير العلمي الصحيح[2]. وهذه المكونات موجودة بأصولها ومكوناتها الأساسية في الشرع وليس كما زعم الرجل، بل هي جزء منه ولا يصح قوله بأنها لا تتعلق بالدين . وقد تكلم القرآن الكريم عن منطق البحث والاستدلال بطريقة فطرية علمية لا أرسطية، فالقرآن تكلم عنه بمنطق الفطرة والبديهة بالتضمن أو بالدعوة إلى الممارسة، أو بالإثارة والإرشاد إلى ممارسته ، أو بالأمر إلى الاحتكام إليه. فمن ذلك مثلا أنه وضع أسسا عامة للمنطق العلمي عند الإنسان منها الصدق والإخلاص في طلب الحقيقة، والاعتقاد بالتوحيد لا بالشرك ، و الاعتماد على الأدلة والبراهين والبعد عن الأهواء والظنون، والاحتكام إلى البديهة لا إلى الأهواء والعصبيات، والاعتماد على المعطيات الملموسة والمعلومة والبعد عن الكلام بلا علم. والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله سبحانه: ((وَلاَ تَقْفُ

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 21 .

[2] ماجد فخري: أرسطو: المعلم الأول ، ص: 29 . أرسطو : منطق أرسطو ، حققه عبد الرحمن بدوي ،ط 1 ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ن بيروت ، 1980 ، ص:385، 507 ، 734 ، 767 . و ماهر عبد القادر محمد علي: المنطق و مناهج البحث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1985 ، ص: 1985 ، ص: 17 ، 18 ، 144 ، 145 .

مَـا لَـيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْـمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولـئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً)(الإسراء: 36))، و((قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(النمل: 64))، ((فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّـنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّـالِمِينَ)(القصـص: 50))، و((وَمَـا يَتَّبِـعُ أَكْثَـرُهُمْ إِلاَّ ظَنّـاً إَنَّ الظَّـنَّ لاَ يُغْنِـي مِـنَ الْحَـقِّ شَـيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَـيمٌ بِمَـا يَفْعَلُونَ)(يونس: 36))، و((إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)(النجم : 23))، ((قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ)(الأنعام: 50))، ((مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(الصافات : 154))، و((وَلَـئِنِ اتَّبَعْـتَ أَهْـوَاءهُم مِّـن بَعْـدِ مَـا جَـاءكَ مِـنَ الْعِلْـمِ إِنَّـكَ إِذَاً لَّمِـنَ الظَّالِمِينَ)(البقرة: 145))،و((إن كثيرا من الناس ليضلون بأهوائهم بغير علم)) –سورة - {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ}- سورة الحج: 8 - .

ومنها أن القرآن الكريم حث وأمر على استخدام مختلف أنواع الاستدلال والتحقيق العلميين . فأمر باستخدام المنطق التجريبي في دراسة التاريخ واكتشاف سننه كقوله سبحانه : ((قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَـانْظُرُواْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَـذَّبِينَ)(آل عمران: 137)). وأمر باستخدامه في علوم الطبيعة منها التاريخ الطبيعي للكون ، كقوله سبحانه: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(العنكبوت : 20)). وأمر باستخدامه في علم الفلك وارتياد الفضاء، كما في قوله سبحانه : ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)(الرحمن: 33)).

وأمر أيضا بالمنطق التأملي في النفس ومختلف مظاهر الكون ، كما في قوله تعالى: ((قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (يونس : 101))، و((وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(آل عمران: 191)) ، و((وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(الذاريات: 21)).

وأمرنا بالتحرك في الواقع بحثا عن الحقائق والتأكد منها بكل ما نستطيع ، كما في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات: 6)).

وأرشدنا إلى استخدام الاستنباط الفكري لاستنتاج الأحكام الشرعية من الوقائع بممارسة الاجتهاد ، كما في قوله سبحانه: ((وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً)(النساء: 83)). وأنكر على من لا يستخدمون عقولهم ولا يحتكمون إليها في تعاملهم مع الأخبار التاريخية المزعومة، فوبخهم وخطأهم وأمرهم بالاحتكام إلى عقولهم. كقوله سبحانه في رده على اليهود والنصارى: ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (آل عمران:65 - 67)).

وذلك المنطق الشامل في البحث والاستدلال طبقه النبي-عليه الصلاة والسلام- وربى عليه الصحابة ، فقد كونهم تكوينا علميا فطريا بديهيا تجريبيا صحيحا ، عندما أبعدهم عن الخرافات و نهاهم عن السحر والشعوذة والكهانة[1] . وعندما مات ابنه إبراهيم في يوم حدث فيه كسوف للشمس وقال بعض الناس : إنها كسفت لموت إبراهيم ، أنكر عليهم قولهم ،وقام في الناس و قال لهم : إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولكنهما آيتان من آيات الله))[2] . فأعطاهم درسا عمليا في التفكير العلمي الصحيح ،و البعد عن التفكير الأسطوري في تعليل الظواهر الطبيعية .

وعن أبي هريرة أن رجلا ((أتى النبي - صلى الله عليه وسلم- فقال يا رسول الله: ولد لي غلام أسود، فقال: هل لك من إبل؟، قال: نعم قال: ما ألوانها ؟ قال حمر، قال: هل فيها من أورق؟، قال: نعم قال: فأنى ذلك؟، قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك هذا نزعة عرق))[3]. فانظر إلى هذه التربية العلمية الرائعة ، كيف علم النبي-عليه الصلاة والسلام- هذا الصحابي التفكير العلمي الصحيح في التعامل مع الظواهر الطبيعية واستخدام التجربة بحثا عن الحقيقة بدلا من اللجوء إلى الأوهام والخيالات وسوء الظن.

---

[1]أنظر مثلا : ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ، ص: 502 و ما بعدها .

[2] البخاري: الصحيح ، ج 1 ص: 353 . .

[3] البخاري: الصحيح ، ج 7 ص: 35 ، رقم: 5305 .

وثانيا إن المنطق الذي دافع عنه الغزالي وزعم أنه لا يتعلق بالشرع نفيا وإثباتا ولا يتعارض معه هو المنطق الصوري- الأرسطي- ، وهذا المنطق معظمه ليس منطقا طبيعيا وإنما هو منطق مصنوع قائم على قياس الشمول- من العام إلى الخاص- ، ومأخوذ من المنطق الفطري الذي يقوم أساسا على المنطق الجزئي باختلاف أنواعه وقد ذكرنا جانبا منه كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية. وهذا يعني أن المنطق الصوري ليس هو الأصل في التفكير العلمي ولا في الشرع ، ولا في حياة البشر عامة، مما يعني أن موقف الغزالي من المنطق الصوري غير صحيح في معظمه لأنه ترك المنطق الفطري الذي يشهد له الشرع والفطرة والعلم وتعلق بالمنطق الأرسطي العقيم المُكسر للرؤوس والمعيق للتفكير العلمي، والمُضيع للأوقات، والذي لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به الغبي[1]. مما يعني أنه ليس صحيحا أن المنطقيات لا تعلق لها بالدين نفيا ولا إثباتا حسب زعم الغزالي. وموقفه هذا يندرج ضمن إغفاله للشرع وإقصائه كما أشرنا إليه سابقا.

ومما قاله الغزالي عن أصول علوم الفلسفة ومصادرها أنه أرجع قسمها المتعلق بالسياسات إلى ما أخذه الفلاسفة من الكتب المنزلة والحِكَم المأثورة عن الأنبياء، فقال: ((وأما السياسيات: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحِكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية، والإيالة السلطانية، وإنما أخذوه من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء عليهم السلام))[2].

وأقول: كلامه هذا لا يصح على إطلاقه، وإنما فيه حق وباطل، فلاشك أن الفلاسفة القدماء وغيرهم من أهل العلم قد تأثروا بالأنبياء والكتب الإلهية المنزلة بطريقة أو أخرى ، لكن لا يصح إرجاع كل ما قاله الفلاسفة عن السياسات بأنهم أخذوه من الأنبياء والكتب المنزلة. لأن ظروف الحياة البشرية بطبعها توجد الحلول والابتكارات حسب حاجات الناس ، ولهذا قيل: الحاجة أم الابتكار. خاصة في مجال الحكم والتنظيمات المرتبطة به ، فهي أكثرها من باب : أنتم أعلم بأمور دنياكم كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام[3].

[1] للتوسع في نقد المنطق الصوري أنظر كتابنا: جنايات أرسطو على العقل والعلم .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 23 .
[3] مسلم: الصحيح ، ج 7 ص: 95 ، رقم 6277 .

والشاهد على ذلك أيضا هو ما كتبه فلاسفة اليونان من دساتير حسب دولهم الكثيرة التي كانت قائمة حسب المدن. فكان لكل مدينة دستورها وقوانينها وطبيعة نظامها . من ذلك كتاب دستور الأثينيين لأرسطو طاليس ذكر فيه قوانين كثيرة خاصة بأثينا دون غيرها من مدن اليونان الأخرى ، ولا أصل لها في تراث الأنبياء ، لأنها كانت وليدة تلك الظروف ، ومن الثابت أنه لم يظهر أنبياء في بلاد اليونان زمن أرسطو (384 – 322 ق م) . قد ونص فيه وفي كتب أخرى على أمور فاسدة ليست من الشرع ولا من العقل ولا يُمكن أن يوصي بها الأنبياء، منها أنه ذكر في ذلك الكتاب أن الفقراء كانوا مُستعبدين للأثرياء هم وأولادهم وزوجاتهم[1].

ومن ذلك أيضا أن أرسطو زعم أن الطبع- الطبيعة- لم يجعل من المتوحشين من هو كائن للإمارة ، فليس ((فيهم حقا إلا من عبد ومن أَمة ، و لم ينخدع الشعراء إذ يقولون : أجل للإغريق على المتوحش حق الإمرة)) . فهذا عند أرسطو صحيح ، ما دام ((الطبع قد أراد أن يكون المتوحش و العبد سيين))[2]، مع أنه قول غير صحيح .

ومنها أن أرسطو زعم أن الطبيعة هي التي خلقت بعض الكائنات للإمارة ،و بعضها للطاعة ، فهي التي جعلت ((الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيداً ... و أن الطبيعة هي أيضا التي أرادت أن الكائن الكُفء بخصائصه الجثمانية لتنفيذ الأوامر يُطيع بوصفه عبدا ، وبهذا تمتزج منفعة السيد ،و منفعة العبد)) . والعبد عند أرسطو مُجرد من الإرادة مُطلقا .وزعم أن الطبع هو الذي عيّن المركز الخاص للمرأة والعبد ، وهو الذي أراد أن يكون المتوحش العبد في درجة واحدة . و بعض الكائنات منذ ولادتها ((مُخصصة للطاعة ،و الآخر للإمرة ،ولو على درجات فروق شديدة التخالف بالقياس إلى هؤلاء و هؤلاء))[3] .

ومن ذلك أيضا أنه عندما شرع الأسكندر المقدوني في توسعاته الاستعمارية أرسل إليه شيخه أرسطو رسالة حثه فيها على أن يُعامل اليونانيين معاملة الأحرار ،ويُعامل البرابرة معاملة العبيد ، فيكون ((قائدا لليونانيين ،و سيدا للأجانب ، و أن يدعي اليونانيين كأصدقاء وأقرب ، أن

---

[1] أرسطو : نظام الأثينيين ، ترجمة طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، د ت ، ص: 44 .
[2] أرسطو : السياسة ، ترجمة لطفي السيد ، منشورات الفاخرية ، د ت ، ص: 100 .
[3] أرسطو : السياسة ، ص: 100 ، 104، 107 ، 129 .

يُعامل الأجانب كحيوانات أو نبات))[1]. فهل هذه التصرفات السياسية الظالمة والفاسدة أخذها أرسطو عن الأنبياء وأتباعهم ؟؟.

وعندما انهى الغزالي نقده للفلسفة قرر أنها ناقصة ولا تفي بالغرض لأنها قائمة على العقل الذي هو محدود وغير قادر على الكشف عن جميع المعضلات، فقال : ((ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات))[2].

وأقول: واضح من كلامه أنه سيواصل نقده لطرق الطالبين ومصادرهم بعدما نقد الكلام والفلسفة ثم الإمامية ليصل إلى تقرير التصوف بدون دليل صحيح كما سيتضح لاحقا. ويلاحظ على الرجل أنه جعل نقده لفلسفة زمانه نقدا للعقل وحكم عليه بأنه قاصر ولا يفي بكمال الغرض وأنه غير مستقل بالإحاطة بجميع المطالب ليصل إلى تقرير التصوف والانتصار له، فهل التصوف يتمتع بذلك ؟؟ طبعا لا وألف لا إنه عاجز تماما عن القيام حتى بنصف ما قام به العقل. وإذا كان العقل عاجزا عن الوصول إلى اليقين فإن هذا يعني أن القلب – الذي يقوم عليه التصوف- عاجز أيضا لأن العقل ليس منفصلا عن القلب ، وإنما هو من غرائزه وجنوده وقواه والكل من قوى النفس الإنسانية. والحقيقة أن التصوف لا يعتمد على العقل ولا على القلب وإنما يعتمد أساسا على الوجدانيات والعواطف، و الظنون والأوهام ، والهلوسات والتلبيسات والخرافات.

ولا يغيب عنا أن نقد الغزالي للفلسفة كان نقدا جزئيا ولا يصدق إلا على الفلسفة التي نقدها – الأرسطية المشائية خاصة- ولا يصح تعميمه ليشمل الفكر الفلسفي الصحيح الذي يقوم على الوحي الصحيح ،والعقل الصريح والعلم الصحيح . وحتى وإن كان هذا الفكر الفلسفي غير موجود أو ضعيف فإن المجال كان مفتوحا لإيجاد تيارات فلسفية جديدة صحيحة تقوم على أنقاض فلسفة اليونان التي نقدها الغزالي من جهة ، وتقوم على ذلك الفكر الصحيح من جهة أخرى .

---

[1] ول ديورانت : قصة الحضارة ، ص: 2610 . و مها أحمد السيد : محاورات أرسطو و أصولها ، ط1 ، دار الوفاء ، الأسكندرية ، 2008 ، ص: 401 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 27 .

ولذلك فإن نقد الغزالي لفلسفة عصره ليس نقدا للعقل ولا حَكما عليه ولا يصح تقزيمه ورفضه بسبب تلك الفلسفة. ولهذا فإن العقل الفطري- القائم على بديهيات العقل والقلب- مع أنه نسبي كغيره من قدرات الإنسان إلا أنه قادر على أن يصل إلى الحقيقة سواء رفع شعار الفلسفة ،أو علم الكلام ، أو الفكر الحر ، أو العقل الفطري أو البديهي شريطة أن ينطلق من بديهيات الفطرة أولا ، ثم اتباع المنهج العلمي الصحيح في البحث والاستدلال ثانيا، ثم الاعتماد على حقائق الواقع والعلم ثالثا ، مع الابتعاد الكلي عن الأهواء والظنون من جهة، وعدم الكلام بلا علم تجردا وطلبا للحقيقة من جهة أخرى .

ثم بعد ذلك يستطيع ذلك العقل أن يصل إلى الحقيقة فيما يتعلق بحقيقة الوجود وطلب اليقين، ومع أن ذلك يكون نسبيا ومجملا إلا أنه حقيقة كافية لتوَصّل العقل إلى اليقين من جهتين: الأول إن كان صاحب هذا العقل يعيش في مجتمع يوجد فيه كتاب الله تعالى فسيُؤمن به ويأخذ بيده إلى اليقين وبر الأمان ويصل إلى الحقيقة تفصيلا لا إجمالا .

وأما الجهة الثانية هي إن كان صاحب ذلك العقل يعيش في مجتمع لا يوجد فيه كتاب الله، أو لم يصل إليه لسبب ما ، فإنه سيصل إلى الحقيقة المجملة باعتقاده واعتناقه للدين الفطري الذي فطر الله تعالى عليه البشر، وهو الإسلام لكنه يعتنقه كدين فطري مجمل لا يحمل اسم الإسلام. قال تعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(الروم: 30))، و((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (الأعراف: 172))، و((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)(العنكبوت: 61)) ((وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)(لقمان: 32))، وعن النبي-عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء))[1] . ولذلك مدح الله تعالى العقل وأصحابه ونوّه بهم ودعا إلى استخدامه ، كما في قوله : ((فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(الرعد: 4))، و((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

[1] البخاري : الصحيح، ج 2 ص: 100 ، رقم: 1385 .

وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ)(آل عمران: 190))، و((نَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى)(طه: 54))- أي أصحاب العقول- ، و((هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)(الفجر: 5))، و((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(الحج : 46)). هذا هو العقل الذي نوه به الله تعالى وأمر باستخدامه ، إنه العقل الفطري البديهي العلمي لا الخرافي، ولا المريض ، ولا المتعصب للباطل ، لأن من عقولهم كذلك ألحقهم الله تعالى بالأنعام في قوله تعالى: ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)(الأعراف: 179))، و((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (الفرقان : 44))، و((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ)(الأنفال: 22)).

علماً بأن العقل الفطري يجمع بين الفكر والقلب والعلم والوحي وأي مذهب أو اتجاه فكري لا يمر في ميزان هذا العقل ولا يتفق معه فإنه ليس صحيحا ولا يصح قبوله. وبذلك يتبين أن نقد الغزالي للعقل غير صحيح، ولو اتبع الغزالي العقل الفطري وبمنهج صحيح ما قال ذلك الكلام ،ولما أغفل الشرع والعقل ، وما ارتمى في أحضان التصوف من دون علم صحيح من شرع ،ولا عقل ،ولا علم . فحكم الغزالي على العقل غير صحيح، ونقده للفلسفة كان جزئيا ولا يصدق عليها كلها ، وإنما حكم عليهما بعدم الثقة لغاية في نفسه .

وإنهاءً لهذا المبحث يُستنتج منه أن نقد الغزالي للفلسفة وأهلها فيه حق وباطل، وكان ناقصا وموجها لغاية في نفسه. فكفر الفلاسفة وأبعدهم من طريقه، وحكم على الفلسفة والعقل بأنهما لا يوصلان إلى اليقين ليواصل بحثه عن اليقين بنقد طريق الشيعة الإمامية ، وبعده يصل إلى الطريق الذي اختاره منهجا إلى اليقين الذي يبحث عنه.

رابعا: نقدنا للغزالي في موقفه منالإمامة الشيعية وأهلها:

نقد أبو حامد الغزالي طريق الإمامة الشيعية نقدا مجملا ، وأشار إلى أنه توسع في الرد على الشيعة الإمامية في كتب أخرى . من ذلك مثلا أنه ناقشهم في جوانب تتعلق بغلوهم في علوم أئمتهم ، وبيّن أن حصيلة علمهم

من أئمتهم المزعومين كانت صفرية وهي شاهدة على فساد ما ينتحلونه. فكان مما قاله: ((بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طالما جربناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم، وإلى المعلم المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلاً عن القيام بحلّها! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: إنه لا بد من السفر إليه والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً، كالمتضمخ بالنجاسة، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله، وبقي متضمخاً بالخبائث ... فهذه حقيقة حالهم فأخبرهم تقلهم فلما جربناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً))[1].

وأقول: أولا ذلك هو مجمل نقد الغزالي للشيعة الإمامية وإمامتهم ، ولاشك أنه نقد صحيح وقوي، ولا يُمكن أن تكون إمامتهم طريقا إلى اليقين والنجاة. لكن نقده لها- مع أهميته- كان نقدا جزئيا وجانبيا ولم يكن نقدا أساسيا مقوضا لأصل ألإمامة نفسها.لأنه لا مذهب شيعي إمامي دون إمامة ، فهي المذهب. ولهذا فلنقد المذهب وهدمه يجب إبطال فكرة الإمامة وتقويضها من أساسها. ولا يتم ذلك بنقد المبررات العقلية، ولا بالروايات الحديثية والتاريخية فهذا أمر ثانوي ، وإنما يتم بنقدها من الأساس الذي تأخذ منه أصلها وشرعيتها وانتسابها، وهو دين الإسلام، وبما أن المصدر الأول والأساسي واليقيني للإسلام هو القرآن الكريم فيجب عرض الإمامة الشيعية عليه عرضا صحيحا صريحا خاليا من التأويلات الفاسدة . فإن وجدت أصلها وشرعيتها فيه فأصلها صحيح وقد تكون طريقا إلى اليقين ، وإن لم تجد ذلك فيه فليست صحيحة ولن تكون طريقا إلى اليقين. وتفصيل ذلك فيما يأتي:

إن من الثابت شرعا أن القرآن الكريم قد حسم مسألة الإمامة والخلافة حسما واضحا لا إشكال فيه ، فقد جعلها شورى بين المسلمين تتم بالرضا والاحتيار وليست هي خاصة بقبيلة ، ولا بفرد ،ولا بأسرة، ولا بعائلة بدليل قوله تعالى: ((وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)(الشورى: 38))، و((فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(آل عمران: 159))، و و((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ)(النساء: 59)).

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 33 ، 34 .

ثم أمرهم بالرد إلى الله ورسوله عند التنازع وليس إلى أولي الأمر منهم، بدليل قوله سبحانه: و((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)(النساء: 59)).

وأمرهم أيضا بإتباع سبيل المؤمنين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وجعلهم قدوة لمن بعدهم وحذرهم من إتباع غير سبيلهم. بدليل قوله تعالى: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(التوبة: 100))، و((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)(النساء: 115)). ولاشك أن هؤلاء السابقين هم الذين طبقوا الحكم الشوري بعد نبيهم كما نص عليه القرآن ، وقد طبقه أولا النبي-عليه الصلاة والسلام- فمات ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وتركه شورى بين المسلمين. ثم طبقه ثانيا الصحابة عامة والسابقون الأولون منهم خاصة ، فاختاروا أبا بكر الصديق خليفة لهم اختيارا حرا لا إكراه فيه[1] .

وبذلك يكون القرآن الكريم قد حسم موضوع الإمامة والخلافة حسما لاشك فيه بفضل تلك التوجيهات والأوامر الإلهية. وهذا يدل قطعا على أن الإمامة الشيعية باطلة في قولها بإمامة علي وأولاده، ولن تكون طريقا إلى اليقين، لأنها مخالفة لما أمر به القرآن الكريم، ولا أصل ولا شرعية لها فيه ، وإنما هي بدعة اختلقها أهل الأهواء لهدم الإسلام وتفريق المسلمين.

وبما أن الأمر كذلك فإن كل مبررات ومرويات الشيعة الإمامية هي أيضا باطلة ومكذوبة قطعا اختلقوها لتأييد إمامتهم المزعومة، ومعارضة ما نص عليه القرآن الكريم بأن الإمامة شورى بين المسلمين وليست خاصة بفرد ،ولا بأسرة ،ولا بقبيلة . ومما يزيد إمامتهم بطلانا وتقويضا المبررات الكلامية والمرويات الحديثية والتاريخية السنية التي هي مناقضة للإمامة الشيعية وموافقة ومُثبتة للحكم الشوري الذي أمر به القرآن الكريم. فلا شرعية للإمامة الشيعية شرعا ولا تاريخا، ولن تكون طريقا إلى اليقين الصحيح، وهذا الذي نص عليه الغزالي، لكن نقده كان ناقصا وجانبيا ولم

[1] للتوسع في ذلك أنظر كتابنا: بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى، دار كنوز الحكمة، الجزائر . والكتاب منشور ورقيا وإلكترونيا .

يكن مقوضا لها من أساسها ، لأنه كان نقدا سريعا وموجها ليصل الغزالي إلى تقرير الطريق الصوفي والانتصار له.

وثانيا : إن نقد الغزالي للإمامة الشيعية مع أنه كان صحيحا وشاهدا على فسادها من جهة ، إلا أنه ينطبق على الغزالي في اختياره للتصوف من جهة ثانية ويكون شاهدا على فساد وبطلان اختياره للتصوف من جهة ثالثة. لأن أبا حامد الغزالي عندما نقد الشيعة الإمامية بأنهم لم يستفيدوا من أئمتهم شيئا مع غلوهم في علومهم ، فإن الغزالي عندما تصوف زعم أيضا أن شيوخ الصوفية - وهو منهم- يعلمون أسرار الكون ، ومع ذلك فإن حصيلته العلمية من تصوفه كانت صفرا . وتفصيل ذلك أن الغزالي زعم أن الصوفي عندما يصل إلى غاية التصوف- بممارسته للطريق الصوفي- يصبح يعلم بالكشف والمشاهدة عالم المُلك والملكوت بنور البصيرة، وفيها يُرفع الحجاب بينه وبين الله وتتجلى في قلبه صورة المُلك والملكوت. والمُلك هو عالم الشهادة ، والملكوت هو عالم الأسرار الغائبة عن المشاهدة بالأبصار وتدرك بالبصائر[1]. ذلك هو علم الكشف والمشاهدة عند الغزالي الذي به يصبح الصوفي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم كل ما في الوجود!!!! . وعرّفه أيضا بقوله:((وهو علم الصديقين والمقربين أعني علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحِكمه في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ،ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحي إليهم والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ،ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار ،وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب .ومعنى قوله تعالى: "اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً -الإسراء: 14 ". ومعنى قوله تعالى:" وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ -العنكبوت: 64 " ومعنى لقاء الله عز و جل والنظر إلى وجهه الكريم . ومعنى القرب منه والنزول في جواره ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ومعنى

[1] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3 ص: 20 . و طبعة دار المعرفة ، ج 1 ص: 283 ، 284 .

تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ... فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم- في جميع أحوالهم فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها وبالعلم والتعليم وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار .وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه و سلم بقوله : "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى" فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياهـ))[1].

فواضح من ذلك أن الغزالي خرج عن حدود الشرع والعقل والعلم وأصبح يزعم أنه يعلم كل شيء، حتى ذات الله وصفاته وأسرار الكون بل والقول بوحدة الوجود وبها هدم الشرع والعقل والعلم. ومن جهة أخرى فقد كانت حصيلة الغزالي وأصحابه العلمية مقابل تلك المزاعم والدعاوى الجنونية صفرية دون شك ، وقد أقمت الأدلة الدامغة على أن الغزالي لم يستفد من تصوفه علما صحيحا وكل علومه التي أوردها في الإحياء منقولة عن أصحابها من جهة ، والأمور التي أخذها من التصوف غالبها فاسد ومخالف للشرع والعقل والعلم من جهة ثانية، وانه وقع في أخطاء وانحرافات شرعية وعلمية وتاريخية كثيرة جدا من جهة ثالثة[2].

فكانت النتيجة واحدة ، فالشيعة الإمامية زعموا أن أئمتهم يعلمون ما كان وسيكون ومنهم يتلقون علومهم[3] ، والغزالي زعم أن شيوخ الصوفية- وهو منهم- يعلمون بكشفهم كل أسرار وغيوب السموات والأرض ومنه يتلقون علومهم. وبما أن كلا من مزاعم الشيعة وشيوخ الصوفية باطلة قطعا

---

[1] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص: 19- 20 .
[2] للتأكد من ذلك والتوسع فيه أنظر كتابنا: التضليل والتحريف في إحياء علوم الدين ، والكتاب منشور ورقيا .
[3] أنظر: الكليني، الأصول من الكافي ، ط3 ، دار الكتب الإسلامية، طهران ، 1388 هـ ، ج 1 ص: 258 .

بدليل الوحي والعقل والعلم ، فإن نقد الغزالي للإمامة الشيعية مع أنه صحيح وناقص، فإنه ينطبق عليه أيضا ويصبح شاهدا على فساد الطريق الصوفي الذي سيتبناه طريقا إلى اليقين القلبي .

وختاما لهذا الفصل- الثالث – يُستنتج منه أن أبا حامد الغزالي أخطأ في حصره لمسالك الطالبين بأربعة فقط، لأنه أغفل الطريق الشرعي وأبعده ، ولم يذكر مسلك الملتزمين بكتاب الله تعالى من جهة، ووقع في أخطاء في نقده لطريق المتكلمين والفلاسفة ولم يستفد من جانبهما الصحيح من جهة ثانية، وأصاب في نقده لطريق الإمامة الشيعية ثالثة. لكن نقده له لم يُرجعه إلى الصراط المستقيم، ومنه دخل الغزالي مباشرة إلى طريق الصوفية وتبناه طريقا إلى اليقين.

الفصل الرابع

نقد مواقف الغزالي في اتخاذه التصوف طريقا إلى اليقين

أولا : نقد أقوال الغزالي في تبنيه للتصوف طريقا إلى اليقين.

ثانيا: نتائج وتعاليق وتساؤلات .

نقد مواقف الغزالي في تبنيه للتصوف طريقا إلى اليقين

بعدما أنهى أبو حامد الغزالي نقده لعلم الكلام والفلسفة والإمامة الشيعية أظهر تبنيه للتصوف طريقا إلى اليقين بكلام صريح وواضح. وتوسع في شرحه والثناء عليه وإظهار خصائصه التي تميز بها وجعلته طريقا صحيحا موصلا إلى اليقين حسب الغزالي. فهل أصاب في اختياره للتصوف ؟، وهل حقا أن التصوف هو الطريق الموصل إلى اليقين ؟؟. وهل التزم بالمنهج العلمي في اختياره للتصوف ؟؟ . وهل حقا أن الغزالي وصل إلى اليقين بتبنيه للتصوف ؟؟.

أولا : نقد أقوال الغزالي في تبنية للتصوف طريقا إلى اليقين:

ذكر الغزالي في المنقذ من الضلال جانبا من اختياره للتصوف طريقا إلى اليقين وممارسته لعباداته ووصوله إلى غاياته . من ذلك أنه قال: ((ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية،وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس،والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله. وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي ...))[1].

وأقول: كلامه هذا فيه غموض وتضليل ، وتحايل وتسلط على القارئ لتوجيهه إلى غاية في نفس الغزالي لصرفه عن أمور أخرى لا يصح إغفالها. لأنه أولا إن الرجل لم يقل أنه بدأ بنقد كتب الصوفية وتمحيص طريقهم كما فعل مع المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية[2]. وإنما قال لنا بأنه أقبل بهمة على مطالعة مصنفاتهم ، وهذا تصرف غير مقبول من إنسان شاكٍ حائرٍ يبحث عن اليقين. ولم يقل لنا كيف تبين له أن طريق التصوف صحيح وموصل إلى اليقين ؟؟. مع أنه أمر يتطلب منه تبيانه .علما بأن إنسانا كالغزالي يعيش أزمة نفسية وفكرية قرأ طرق الطالبين الأخرى قراءة نقد وتمحيص كما حكى هو عن نفسيه يجب عليه أيضا أن يقرأ التصوف

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 34 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13، 14 ، 27 ، 34 .

بحذر ونقد وتمحيص وصرامة علمية . وهذا المنهج هو الذي يتفق مع حاله ،ومع شرطه الذي عرّف به العلم اليقيني. لكنه لم يلتزم بهذا المنهج في تبنيه للتصوف ، فقد تركه وراء ظهره واختار التصوف من دون أن يُناقشه ويُثبت صحته إن كان صحيحا . ويبدو أنه مهد لتبنيه للتصوف دون مناقشة بما قاله سابقا عندما حصر طرق الطالبين في أربعة ، وقال بأنها لا تخرج عنها، وبما أنه بيّن عدم صحة طريق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية حسب نقده لها ، فإن هذا يعني أن الطريق الصوفي صحيح بالضرورة حسب رأيه. وهذا الاستدلال لا يصح ، لأن الحق لم يكن محصورا في تلك الطرق ، ونقده لها كان ناقصا ومملوءا بالأخطاء، كما أن بعضها يمكنه أن يكون طريقا لليقين كما سبق أن بيناه فيما يخص علم الكلام والفلسفة. فالرجل يحكي لنا قصة خطط لها سلفا مزج فيها بدايتها ووسطها ونهايتها وظلت نهاياتها تتحكم فيها وتوجهها من اجلها وهي اختيار الرجل للتصوف وبلوغ غاياته. بمعنى أن الرجل كتب معظم قصة شكه وحيرته بلسان التصوف لا بلسان حاله الذي عانى منه أيام شكه وحيرته.

وأما إذا قيل: إن الرجل استدل على صحة تبنيه للتصوف بعلمه به وتذوقه وممارسته ؛ فأقول: هذا اعتراض لا يصح ، لأن كل الأديان والمذاهب تقوم على علم وعمل وليس هذا خاصا بالتصوف. فكل دين أو مذهب إلا وله أصوله النظرية، تقابلها فروعه العملية ، وبعدها تأتي نتائجه وآثاره. فإن كان صحيحا فلا بد له من شواهد نظرية وشعورية وعملية تشهد له بالصحة، وإن كان باطلا فلا بد أن يتضمن شواهد نظرية وسلوكية ونفسية على فساده وبطلانه. ولهذا فكان يجب على الغزالي أن يُقيم أولا الأدلة الصحيحة على صحة اختياره للتصوف، وعلى أن التصوف هو الطريق الوحيد لليقين. وهذا لم يفعله قطعا .

علما بأنه لا يصح الاحتجاج بذلك المبرر لأمرين: الأول يمكن لأي إنسان أن يستخدمه انتصارا لفكره ودينه مهما كان حاله ، فهو ليس خاصا بالغزالي، ومن جهة أخرى يُمكن رد قول الغزالي بنفس الطريقة، فيُقال مثلا: لقد ثبت عندي علما وذوقا وممارسة فساد الطريق الصوفي جملة وتفصيلا . والثاني هو أن تبريره لا يتضمن دليلا على صحته، وإنما هو مجرد زعم ، فهو ليس دليلا، والزعم لا يعجز عنه أحد.

وذلك التصرف يُشير إلى أن أبا حامد الغزالي غالط القارئ بذلك القول لكي لا يُطالبه أولا بمناقشة التصوف كما ناقش الطرق الأخرى فيُثبت بطلانه أو صحته. وفِعله هذا يدل على أنه خطط للأمر مُسبقا لغاية في نفسه من جهة، ثم أدخله في قصته التي تصرف فيها وفصلها عل مقاسه الصوفي من جهة أخرى.

وثانيا ثم أن الرجل ذكر لنا حاصل الطريق الصوفي وعلومه من دون أية مناقشة له، ولا ذكر أي دليل يُثبت صحته ، ولا عرضه على ميزان الشرع ولا العقل ولا العلم ، وإنما قرر ذلك وكأن التصوف صحيح بذاته بالضرورة وهذا لا يصح قطعا. لأن التصوف من أفسد المذاهب وأبطلها شرعا وعقلا وعلما ، وهذا أمر أقمتُ الأدلة الدامغة والقطعية على صحته ليس هنا موضع تفصيلها[1]. والحق لا يُعرف إلا بالأدلة الصحيحة أو بآثارها الدالة عليه ، وبها يُميز الخبيث من الطيب والصحيح من السقيم .

وثالثا كان على الغزالي أن ينقد الطريق الصوفي ويناقشه عندما قال بأنه يقوم على: ((تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله))[2]. فهل هذا المنهج صحيح ؟؟، وأليس القيام بذلك الطريق يرمي بالإنسان في أحضان الأهواء والهلوسات والتلبيسات الشيطانية بحكم أنه غير خاضع لميزان الشرع والعقل والعلم ؟؟. وأليس ذلك المنهج مخالف للمنهج الشرعي في الإيمان والتربية وعمارة الأرض وعبادة الله تعالى وفق شريعته؟؟. نعم إنه كذلك ، فلا وجود له في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة الموافقة له. لأنه من الثابت شرعا أن الله تعالى أمرنا بالإيمان به وبدينه وتطبيق شريعته كلها قلبا وقالبا وفي كل مجالات الحياة. ولم يأمرنا بتخلية القلب عن غيره ، وإنما كما أمرنا سبحانه وتعالى بحبه فإنه أمرنا أيضا بحب ملائكته ، ورسله والمؤمنين ، وبحب أزواجنا وأبنائنا ، وبحب الخير للناس، لكنه اشترط علينا سبحانه أن يكون حبنا لله ثم لرسوله أحب إلينا من كل هؤلاء، لقوله تعالى: ((قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(التوبة: 24)) ، و((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً

---

[1] الغزالي: أثبتُ ذلك في: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. والتضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين . والكتابان منشوران إلكترونيا .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 34 .

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)(البقرة : 165)).

وأما من جهة تحلية القلب بالذكر، فهذا جزء من الشرع وليس هو الغاية النهائية ولا هو وحده ، وإنما أمرنا الله أيضا بأن نحمّل قلوبنا أيضا هم الالتزام بالشرع وتطبيقه قلبا وقالبا ، والدعوة إليه وعمارة الأرض والجهاد في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى . قال سبحانه: ((قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الأنعام: 162))، و((قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الأنعام : 162))، و((فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)(النساء: 65))، و((إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(التوبة: 111)). فواضح من ذلك أن منهج الصوفية الذي وصفه الغزالي ومدحه هو مخالف للشرع ، وكان من الواجب عليه أن ينقده بميزان الشرع والعقل والعلم.

والقول الثاني: يقول الغزالي : ((حتى اطلعتُ على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات... فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر))[1].

وأقول: الرجل واصل طريقه في التقرير والمدح والثناء وكأنه يذكر كلاما قطعيا صحيحا بذاته لا يحتاج إلى دليل لإثباته. وهذا نقض لمنهجه الذي وضعه في بداية الكتاب. فهو هنا لم يُطالع كتبهم ناقدا ممحصا مغربلا للتصوف وإنما طالعه مُحصلا له ومطلعا على مقاصده ، وهذا غير مقبول منه بل كان عليه أن ينقده نقدا صحيحا ويعرضه على ميزان الوحي

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 34 .

والشرع والعلم ، وحتى وإن فرضنا جدلا أنه قد فعل ذلك لكنه أغفل ذكره ذلك هنا ،فهذا غير مقبول منه لأنه في صدد نقد طرق الطالبين ، وهذا يُوجب عليه ذكر الأدلة على نقده تأييدا أو رفضا، ولا يفرض علينا موقفه تغليطا وتلاعبا ، لأن يقينه شيء ويقين غيره شيء آخر، واقتناعه هو بالتصوف لا يعني بالضرورة اقتناع غيره به، ولا أن ما اقتنع به هو صحيح .

وثانيا إن اقتناع الغزالي بأن الصوفية أرباب أحوال لا أصحاب أقوال لا يعني صحة اقتناعه ، لأني أنا شخصيا اقتنعتُ بالأدلة القطعية من الشرع والعقل والعلم أن الصوفية ومنهم الغزالي هم أرباب أحوال فاسدة وباطلة وجنونية من جهة ، وأنهم من أكثر الناس كلاما وباطلا وإقبالا على الدنيا ووقوفا مع الظلمة من جهة ثانية، وأنهم من أكثر الطوائف خطأ وتعطيلا للشرع وهدما له وللعقل والعلم من جهة ثالثة. وقد أقمتُ الأدلة القطعية والدامغة على صحة كلامي هذا، لكن الغزالي لم يقدم لنا هنا أي دليل صحيح يثبت زعمه، وما ذكره في الإحياء دفاعا عن التصوف معظمه غير صحيح ومملوء بالتضليل والتحريف[1]. فعجبا من الغزالي كان ناقدا فاحصا باحثا عن اليقين طالبا للدليل عندما نقد الطرق السابقة لكنه عندما وصل إلى طريق الصوفية تخلى عن منهجه وأصبح صوفيا مادحا داعيا له ، من دون أن يذكر أي دليل يثبت صحة اختياره له، ولا رد على ناقدي التصوف وأهله !!.

ولا يصح للغزالي ولا غيره أن يحتج على صحة موقفه معتمدا على ذوقه وعواطفه وإحساسه الداخلي. فهذا منهج غير صحيح لأمرين أساسيين: الأول هو أن الاحتجاج بذلك ضعيف جدا ولا يقنع إلا صاحبه ، ويُمكن أن يُنقض بنفس الطريقة. والأمر الثاني هو أن الاحتجاج بذلك هو احتجاج بلا دليل وإحالة على مجهول . ولهذا فمن يستدل بذلك المنهج يجب عليه أن يذكر الشواهد والآثار الدالة على صحة موقفه، وإلا فهو مرفوض. لأنه كما ذكرنا سابقا أن أية عقيدة ، أو فكرة ، أو موقف يتعلق بالعقل أو بالقلب إلا وله آثاره وشواهده الدالة عليه صحة أو سقما ، كذبا أو صدقا .

وبمعنى آخر إنه لا يصح الاحتكام إلى الوجدان والأذواق بلا أدلة ومعطيات موضوعية تشهد لها بالصحة لأنها أحوال ذاتية نسبية ويستطيع

---

[1] أثبت ذلك في الكتابين اللذين ذكرتهما سابقا .

أي إنسان أن يدعيها ، أو يردها ويُكذبها بنفس الطريقة، فيدعي أنه تأكد بأذواقه ومواجيده أن ما قاله الغزالي مثلا غير صحيح ، وأنه هو شخصيا مُطمئن إلى ذلك يقينا. ولهذا فإن قول الغزالي غير علمي ومردود عليه ولا يصح الاحتجاج به أصلا. فالرجل أراد أن يقنعنا بصحة التصوف واقتناعه بلا أدلة من الشرع ولا العقل ولا من العلم ، وهذا مرفوض وباطل من دون شك .

وثالثا إن قول الغزالي بأنه اقتنع بالتصوف بمطالعة كتبه وهو قائم أساسا على العمل و((أن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك))، فهو كلام غير مقبول لأن أي فكر، أو دين ، أو مذهب، أو موقف للتأكد من صحته يجب أن يقوم الدليل على صحته من الشرع، أو من العقل ، أو من العلم نظريا ثم عمليا . ولا يصح القول إن ذلك يظهر في التطبيق لا في النظر. ولهذا لما أرسل الله تعالى رسله كان يُؤيدهم بالبراهين والآيات البينات الملموسات أولا ، بدليل قوله تعالى: ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ)(الحديد : 25))،و((فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)(آل عمران: 184)) ، ثم يأتي ثانيا الإيمان والعمل ليزيد في صدق وقوة البينات والبراهين . كما هو حال نبوة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين-عليه الصلاة والسلام- أيده الله تعالى بمعجزة علمية مبهرة خالدة إلى يوم القيامة أولا ، ثم أيده بالنصر المؤزر عمليا ثانيا .

ورابعا: إن قوله بأن العلوم التي حصّلها أكسبته اعتقادات يقينية منها النبوة ، فهو قول يتناقض مع اعتقاده بالتصوف ومع كثير مما ذكره حكاية عن أزمته الفكرية والنفسية، اللهم إلا إذا كان إيمانا عقليا مجردا من جهة إمكانيتها ، أو أنه إيمان ناقص وفيه دخن ، لأن من يُؤمن إيمانا قطعيا وصحيحا عن وعي وفهم بأن محمدا رسول الله جاء بالقرآن الكريم خاتما للرسالات السماوية لا يُمكن أن يتخذ التصوف ولا غيره منهجا وطريقا إلى اليقين من دون طريق القرآن الكريم . لكن الرجل نقض قوله هذا عندما أغفل القرآن وسيلة للمعرفة ومصدرا وطريقا إلى الهداية واليقين. ونقضه أيضا عندما لم يتخذ الطريق الشرعي في التزكية القلبية والأخلاقية المذكورة في القرآن الكريم وطبقها النبي-عليه الصلاة والسلام- في تربية أصحابه. ونقضه عندما لم يُخضع التصوف لميزان الشرع والعقل والعلم لأن الإسلام يأمرنا بذلك. ونقضه أيضا عندما تبنى التصوف مع أنه مخالف

للشرع أصولا وفروعا وغاية ،وعندما كتب إحياء علوم الدين وانتصر فيه للتصوف وخالف الشرع بل وهدم الوحي والعقل والعلم باستخدام مختلف طرق التضليل والتحريف[1] !!.

والقول الثالث مفاده أن الغزالي بعدما اقتنع بالتصوف منهجا شرع في تطبيقه عمليا بممارسة عبادات الطريق الصوفي فقال: ((ثم دخلتُ الشام، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، وثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بعد الفراغ من زيارة الخليل -صلوات الله وسلامه عليه-، فسرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر. وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعيشة، تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أقوات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها. ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به. إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به))[2].

وأقول: إن قوله هذا باطل في معظمه ، وتضمن جرائم في حق الشرع والعقل والعلم، وفيه تضليل وتلاعب واستهزاء بالناس ، وافتراء على

---

[1] بينت ذلك بالأدلة الكثيرة جدا والدامغة في : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. و التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 39 .

الشرع والعقل والعلم. وتفصيل ذلك أولا: إن الرجل بعدما خالف الشرع في تبنيه للتصوف ولا نقده به ولا أقام دليلا واحدا صحيحا على صحة تصوفه ، دخل مجال التطبيق العملي لعبادات التصوف والمتكونة من: الخلوة، والجوع ، والصمت ، والسهر كما ذكره هو في الإحياء[1]. وهذا الطريق ليس من دين الإسلام وإن حملت بعض عباداته مصطلحات شرعية ، لكنها بمضامين صوفية . وهذا المنهج لا وجود له في القرآن ولا في السنة ، ولا عرفه الصحابة ولا طبقوه، وإنما هو طريق النساك والرهبان من القديم عند البوذيين والنصارى وغيرهم[2] . وهو منهج يقتل الإنسان ويدمره ويضعفه عقليا ونفسيا وجسديا ويخرجه من وعيه ويرمي به في خداعات الحواس والهلوسات والتلبيسات الشيطانية[3] .

وثانيا إن مدحه للصوفية وسيرتهم بدعوى أنهم هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، فهو كلام غير صحيح في معظمه ، والعكس هو الصحيح، لأنه من الثابت تاريخا وواقعا أن الصوفية من أكثر الناس انحرافا عن الشرع بما هم فيه من بِدع وخرافات وأباطيل ، وكسل ولهو ورقص وشركيات[4] ، ومن تقربٍ إلى الظلمة وسكوت عن منكراتهم. وليس هنا مجال تفصيل ذلك[5]، لكن سأذكر من ذلك أربعة شواهد فقط من باب التمثيل لا الحصر:

أولها يتعلق بالغزالي نفسه، فهو قد مارس مختلف أنواع التضليل والتحريف والتلاعب في كتابه إحياء علوم الدين ، واعترف أنه متعدد الخطاب ، وأقر مبدأ التقية عند الصوفية ، وحرص على إخفاء مخالفات الصوفية للشرع مع اعترافه بأن ما يُخفيه مخالف للشرع[6] . فهل هذه التصرفات من الأخلاق الحسنة والسيرة الحميدة ؟؟ .

والشاهد الثاني يتعلق بمصاحبة الصوفية للأحداث- الأطفال- وانتشار ظاهرة اللواط بينهم، ومخالطة النساء، وهذا باعتراف شيوخهم ، حتى أن الصوفي رفيع أبا العالية ، كان قد أخذ عهودا من الصوفية بمجانبة

---

[1] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3 ص: 101 .
[2] عبد الله مصطفى نومسوك : البوذية: تاريخها، وعقائدها، وعلاقة التصوف بها، ص: 411 وما بعدها ،511 .
[3] بينتُ ذلك بالشواهد الصحيحة في كتابي: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف .
[4] الأدفوي: الطالع السعيد ،ص : 724 .
[5] ذكرت شواهد كثيرة من ذلك في كتابنا: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف .
[6] للتأكد من ذلك والتوسع فيه أنظر كتابنا: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. والكتاب منشور إلكترونيا .

الأحداث[1]. وقال شيخ الصوفية بالري يوسف بن الحسين الرازي (ت 403):((رأيتُ آفة الصوفِيَّة في صُحْبَة الأحداثِ، و مُعاشرة الأضداد، وإرفاق النسوان))[2].

والثالث يتضمن مشهدا للفسق والفجور والزنا الجماعي، على طريقة الصوفية القائمة على التمويه والرمزية والتعمية والتلبيس والنفاق. قال ابن الجوزي: ((وبإسناد عن أبي القاسم بن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: أخبرني جماعة من أهل العلم أن بشراز رجلا يعرف بابن خفيف البغدادي(276-371هـ) شيخ الصوفية هناك يجتمعون إليه ويتكلم عن الخطرات والوساوس، ويحضر حلقتة ألوف من الناس وأنه فاره فَهِم حاذق فاستغوى الضعفاء من الناس إلى هذا المذهب. قال: فمات رجل منهم من أصحابه وخلف زوجة صوفية فاجتمع النساء الصوفيات وهن خلق كثير ،ولم يختلط بمأتمهن غيرهن، فلما فرغوا من دفنه دخل ابن خفيف وخواص أصحابه وهم عدد كثير إلى الدار وأخذ يعزي المرأة بكلام الصوفية إلى أن قالت: قد تعزيت ،فقال لها: ههنا غير ،فقالت: لا غير، قال: فما معنى إلزام النفوس آفات الغموم وتعذيبها بعذاب الهموم، ولأي معنى نترك الامتزاج لتلتقي الأنوار وتصفو الأرواح ويقع الاخلافات وتنز البركات. قال: فقلن النساء إذا شئت .قال: فاختلط جماعة الرجال بجماعة النساء طول ليلتهم، فلما كان سحر خرجوا. قال المحسن قوله: ههنا غير ،أي ههنا غير موافق المذهب ،فقالت: لا غير أي ليس مخالف. وقوله: نترك الامتزاج ،كناية عن الممازجة في الوطء. وقوله: لتلتقي الأنوار ،عندهم أن في كل جسم نورا الهيا. وقوله: اخلافات أي يكون لكن خلف ممن مات أو غاب من أزواجكن. قال المحسن: وهذا عندي عظيم ،ولولا أن جماعة يخبروني يبعدون عن الكذب ما حكيته لعظمه عندي واستبعاد مثله أن يجري في دار الإسلام .قال: وبلغني أن هذا ومثله شاع حتى بلغ عضد الدولة[3] فقبض على جماعة منهم وضربهم بالسياط وشرد جموعهم فكفوا))[4].

والشاهد الأخير: - الرابع- يتضمن شهادة من صوفي كبير على صوفية عصره ، هو عبد الكريم القشيري(ت 465 هـ)، وصفهم بقوله: ((وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا

---

[1] أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، ج 2 ص: 217 .
[2] أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: 64 .
[3] هو السلطان البويهي .
[4] ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص: 326 .

التمييز بين الحلال والحرام. ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا إلى إتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان، وأصحاب السلطان. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكامه للبشرية. وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صرفوا. ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوّحت ببعضه من هذه القصة وكنتُ لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة))[1].

وثالثا إن قول الغزالي بأنه انكشفت له في خلواته أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. فإن الحقيقة هي أنه لم يكتشف شيئا صحيحا وإنما الذي اكتشفه أوهام وخيالات وهلوسات وتلبيسات وخداعات حواس عندما كان في خلواته وغيبوبته. والدليل على ذلك الشواهد الآتية: أولها إن الطريق الصوفي ليس منهجا صحيحا شرعا ولا عقلا ولا علما كما بيناه مرارا[2]، ومن ثم لا يمكن أن تكون نتائجه صحيحة. والشاهد الثاني إن الغيبوبات والهلوسات التي يصل إليها الصوفية بعزلتهم وجوعهم وسهرهم وعطشهم لا يُمكنها أن تنتج علما صحيحا لأنها تشبه حالات متناولي المخدرات المهلوسة فتجعل أصحابها يعيشون في عوالم وهمية خيالية لا حقيقة لها في الواقع. والشاهد الثالث: لقد أقمتُ الأدلة الدامغة بأن التصوف مخالف للشرع ومعطل له في الأصول والفروع والغايات[3] ، مما يعني أن ما اكتشفه الرجل ووصل إليه ليس حقيقياً . والشاهد الرابع: إن الحصيلة العلمية عند الغزالي والتي دونها في كتابه إحياء علوم الدين- وهو كتاب صوفي روحا ومنهجا- ليس فيه من التصوف إلا الأخطاء والغرائب والمخالفات الشرعية والألغاز والطامات من جهة، والجوانب الأخرى نقلها الغزالي من الكتب حسب مواضيعها من جهة أخرى، فلو كان ما اكتشفه

---

[1] القشيري: الرسالة القشيرية ، ص: 1 .
[2] بينا جانبا منه في كتابنا هذا ، وفي : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. وفي: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .
[3] للتأكد من ذلك أنظر : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. وفي: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

الغزالي صحيحا لانعكس ذلك على مصنفاته بغزارة العلم وكثرة الابداع والصواب وصحة المنهج، لكن هذا لم يحدث . والشاهد الأخير- الخامس- إن الرجل ذكر في كتابه إحياء علوم الدين أنه هو وكبار الصوفية أصبحوا يعلمون أسرار غيوب السموات والأرض، بل وعرفوا حتى ذات الله وصفاته وأفعاله بفضل المكاشفة حسب زعمه[1]. وهذا كلام باطل بلا ريب ، بل ومن الجنون من دون شك، يشهد قطعا بأن ما اكتشفه الرجل في خلواته ليس علما وإنما هو أوهام وهلوسات ،وتلبيسات وخداع حواس.

ورابعا إن قول الغزالي بأن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى ، وهم أحسن الناس أخلاقا ومسلكا عقلا وحكمة وعلما ، هو كلام غير صحيح في معظمه. لأن الصوفية في الحقيقة سلكوا الطريق الصوفي إلى الله، وليس هم السالكون لطريق الله. فهذا باطل قطعا، لأن التصوف مخالف للشرع بأصوله وفروعه وغاياته، بل ومعطل وهادم له[2] فكيف يسلكون طريق الإسلام الذي هو صراط الله المستقيم ؟؟. والغزالي نفسه أغفل الشرع في منقذه : معرفة وطريقا لليقين من جهة، وقرر خلافه، ومارس مختلف أنواع التضليل والتحريف في تعامله مع الشرع في إحياء علوم الدين من جهة أخرى . وبما أن الأمر كذلك فيستحيل أن يكون التصوف وأهله كما وصفهم الغزالي.

وأما الزعم بأن الصوفية كانوا على منهج صحيح جمع بين العلم والحكمة والعقل عندما قال: ((وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً)). فهو زعم باطل في معظمه لأن الحكمة القليلة الموجودة عندهم هي عند غيرهم أكثر، والأباطيل والخرافات والطامات التي يعتقدونها والمزاعم الجوفاء التي يفتخرون بها لا نكاد نجدها عند غيرهم. كقولهم بوحدة الوجود ، ومعرفة غيوب السموات والأرض، ونقضهم للنبوة بدعوى الولاية الصوفية، وهذه الأباطيل والضلالات قررها الغزالي في كتابه الإحياء وانتصر لها بمختلف طرق التضليل والتحريف. فأية حكمة ، وأي علم عند الصوفية بعد قولهم

[1] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص: 19- 20 .
[2] هذا أمر ثابت قطعا وقد بيناه بعشرات الأدلة في كتابنا: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف .

بتلك الضلالات ؟؟ !! . وأي شرع التزم بـه الصـوفية فـي سيرهم المزعوم إلى الله تعالى ؟؟.

علما بأن الصوفية منذ القديم عُرفوا بالحماقة وقلـة العلـم ، فمن ذلـك مثلا: عـن يـونس بـن عبـد الأعلـى قـال: ((سـمعت الشـافعي يقـول: لـو أن رجـلا تصوف أول النهار لا يـأتي الظهر حتـى يصير أحمق)). وعنـه أيضـا أنـه قـال: ((مـا لـزم أحـد الصـوفية أربعين يومـا فعـاد عقلـه اليـه أبـدا)). وأنشـد الشافعي:

ودعوا الذين إذا أتوك تنسكوا ... وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف[1].

وقال ابن الجوزي: ((عن حـاتم قـال: حدثنا أحمد بـن أبـي الحـواري قـال: قال أبو سليمان: مـا رأيـت صـوفيا فيـه خيـر إلا واحدا عبد الله بـن مـرزوق. قـال: وأنـا أرق لهم)). وعن يـونس بـن عبـد الأعلـى أنـه قـال: ((مـا رأيـت صـوفيا عاقلا إلا إدريس الخولانـي)) .وعن يـونس بـن عبـد الأعلـى أنـه قـال: ((صحبت الصوفية ثلاثين سنة مـا رأيت فيهم عـاقلا إلا مسلم الخـواص)). وعـن احمد بـن أبـي الحـواري أنـه قـال: حدثنا وكيـع قـال: ((سـمعت سـفيان يقـول: سـمعت عاصـما يقـول: مـا زلنـا نعـرف الصـوفية بـالحُمـاق إلا أنهـم يستترون بالحديث))[2].

ومنهـا أيضـا أن أبـا طـالب المكـي ذكـر أن صـوفيا ((ضـاع ولـده وكـان صـغيراً ثلاثـة أيـام لا يعـرف لـه خبـراً فقيـل لـه: لـو سـألت اللّه أن يـرده عليك فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشدّ من ذهاب ولدي))[3] !!.

ومنها أيضـا: قال الصوفي أبو الحسن الـدراج: ((فتشـتُ كنـف أسـتاذي[4] أريد مكحلة فوجدت فيه قطعة فضة فتحيرت فلما جاء قلت لـه: إنـى وجدتُ فى كنفك قطعة . قال: قد رأيتها ردها ،ثم قال: خذها واشتر بها شيئا. فقلت لـه: مـا كـان أمـر هـذه القطعـة بحق معبـودك . قـال مـا رزقنـي الله مـن الـدنيا صفراء ولا بيضـاء غيرها فأردتُ أن أوصـي أن تُشد فـي كفنـي فأردهـا إلـى الله عز و جل))[5]. فـانظر إلـى جهـل الرجـل وحماقتـه !!!! ، فهـل الله تعـالى أمرنـا بدلك ؟؟ ألم يأمرنـا بأكل الحلال ، والجهاد في سبيله بأموالنا وأنفسنا.

[1] ابن الجوزي: تلبيس ابليس س، ص: 327 .
[2] ابن الجوزي: تلبيس ابليس س، ص: 327 .
[3] أبو طالب المكي: قوت القلوب ، ص : 435 .
[4] لم أعرفه .
[5] الكلاباذي: التعرف لمذهب التصوف ، ص: 96.

وخامسا إن قول الغزالي : ((فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به))[1]. فهو غير صحيح دون شك ، وفيه تضليل وتحريف ، وليس فيه من الحق إلا القليل الذي هو ليس من التصوف وإنما أُلحق به. فلا يُمكن أن تكون جميع حركاتهم وسكناتهم ظاهرا وباطنا مقتبسة من الشرع ، وإنما هي مأخوذة أساسا من التصوف الذي هو دين قائم بذاته بأصوله وفروعه وغايته لكنه مُتستر بالإسلام من جهة، ومُعطل وهادم له من جهة أخرى. وقولي هذا صحيح قطعا وقد أقمتُ على الأدلة الدامغة على صدقه وصحته[2].

وهذا الرجل أمره غريب جدا، فقد رأيناه اغفل الشرع وخالفه مرارا ثم في النهاية يزعم أن التصوف مقتبس من مشكاة النبوة !!. ولو كان الأمر كما زعم فلماذا كانت حصيلة ما كتبه في الإحياء معظمه مخالف للشرع وهادم له وللعقل والعلم ؟؟. ولماذا تناسى النبوة والإسلام عندما كان يتكلم عن مصادر المعرفة وطرقها، ثم عندما اختار التصوف بعيدا عن الشرع ألبسه ثوب الإسلام ؟؟ وأليس قوله بأن الصوفي بكشفه يصبح يعلم أسرار الكون وغيبوبه ، ويعرف ذات الله وصفاته هو هدم للنبوة ؟؟ وأليس قوله بالولاية الصوفية هو نبوة جديدة ؟؟، وأليس قوله بوحدة الوجود بدعوى الفناء في الله هو هدم للنبوة والوحي والعقل والعلم ؟؟. وكل تلك الأقوال سجلها في إحياء علوم الدين وقررها وانتصر لها بالباطل .

والقول الرابع- من مظاهر اليقين التي وجدها الغزالي في التصوف - :أنه واصل مدحه للتصوف والثناء عليه بقوله: ((وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟!))[3].

وأقول: إن كلامه هذا هو دليل دامغ على فساد التصوف وانحرافه عن الشرع، وليس دليلا على صحته وسلامته. لأنه أولا إن الصحيح في أول الطريق هو الإيمان بالله وباقي أركان الإيمان ثم الالتزام بالشرع قلبا وقالبا

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 39 .
[2] أنظر: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف . والتضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .
[3] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 39 .

، قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(يونس: 9)) ، و((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)(فصلت: 30))، وفي الحديث عن النبي-عليه الصلاة والسلام- أنه قال: ((قل آمنت بالله ثم استقم))[1]. فطهارة القلب هي جزء من الشرع وقائمة عليه ومن أوامره، لكن طهارة القلب في التصوف تتم أساسا بمخالفة الإسلام غالبا وتطبيق عبادات الطريق الصوفي التي تقتل في الصوفي قواه العقلية والنفسية والجسمية لترمي به في أتون خداع الحواس والهلوسات ، والتلبيسات الشيطانية، لينتهي إلى الاعتقاد بضلالة وحدة الوجود. فأية طهارة بقيت للقلب الصوفي ؟؟.

وثانيا إن الصحيح في دين الإسلام ليس هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله، فهذا في الدين الصوفي القائم على السلبية والتواكل طلبا لضلالة وحدة الوجود ، وإنما هو أن يكون المسلم عبدا لله تعالى في كل أحواله ملتزما بشريعته قلبا وقالبا، علما وأخلاقا، جهادا بالمال والنفس، وتعاونا على البر والتقوى؛ وأثناء ذلك يكون قلبه معلقا بالله وذاكرا له بصدق وإخلاص. والنصوص الشرعية الدالة على ذلك كثيرة جدا ، كقوله سبحانه: ((قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الأنعام : 162))، و((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)(الحجرات: 15))، و((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات: 56)).

وأما افتخاره بأن آخر غاية الصوفي الفناء بالكلية في الله[2]، فهو اعتراف خطير جدا من الرجل لكنه اعتراف لم يشرح معناه الحقيقي ولغّزه على طريقة الصوفية باستخدام الإشارات بدلا من العبارات الواضحة لإخفاء ضلالاتهم وانحرافاتهم عن الناس. لأن حكاية هذا الفناء المزعوم لا وجود له في الإسلام، والله تعالى أمرنا بأن نعبده ونلتزم بشريعته ولم يأمرنا بالفناء فيه. ولأن الفناء عند الصوفية يعني أن يفني الصوفي عن نفسه ومحيطه ثم في الله ليصل إلى وحدة الوجود ، التي تعني: أن الله هو الكون ، والكون هو الله . وهذه الضلالة بينها الصوفية في كتبهم وشرحها الغزالي وانتصر لها في إحياء علوم الدين. ولاشك أن هذا الفناء هو ضلال مبين ، وهدم للوحي

[1] الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج 1 ص: 409 ، رقم: 4395 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 39 .

والعقل والعلم ، وجنون ما فوقه جنون[1]. أليس الرجل يمدح التصوف بعوراته وضلالاته ؟؟.

والقول الخامس مفاده أن الغزالي قال: ((ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الأسنى . بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لستُ أذكرهُ ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبرِ))[2].

وأقول: كلامه هذا باطل جملة وتفصيلا، ولم يقدم عليه أي دليل صحيح يُثبته واكتفى بالتلغيز والتحذير والتحبيب . لأنه أولا إن ما ذكره مخالف للمنهج الشرعي في الإيمان والتزكية وتذوق الأحوال والمواجيد الإيمانية، بل لا وجود له فيه كلية. لأن الإيمان الصادق في الإسلام: اعتقادا وعملا يُورث المؤمنين الخشوع والإخبات والنور وحلاوة الإيمان، لقوله تعالى: ((وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)(الحجرات: 7))، ،((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الزمر: 23))،و((أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(الأنعام: 122)). وعن النبي-عليه الصلاة والسلام- أنه قال:((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار))[3].)). ولا يوجد في الإيمان الشرعي وثماراته ما زعمه الغزالي من مكاشفات ومشاهدات كرؤية

---

[1] ليس هنا مجال التوسع لبيان ذلك وإبطال مزاعم الصوفية بذلك. لكني توسعت فيه في : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. و في: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين.
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 40 .
[3] البخاري: الصحيح ، ج 1 ص: 12 ، رقم: 16 .

الملائكة وأرواح الأنبياء، فلا يوجد دليل من القرآن ولا من السنة الصحيحة يُثبت ما زعمه الرجل. ولو كان صحيحا لورد ذكره في الشرع لأن الله تعالى أكمل دينه ، ولا يُمكن أن يغفله وقد فصّل أحوال الإيمان وثماراته تفصيلا واضحا شاملا كاملا، ولم يَرِد فيه ما زعمه الغزالي.

وثانيا إن قول الغزالي هو شهادة دامغة وثمينة بأنه وأصحابه عندما يُمارسون عبادات الطريق الصوفي القاتلة يخرجون من عالم الشرع والعقل والعلم واليقظة ويدخلون في عالم الأوهام والخيالات وخداع الحواس، والهلوسات والتلبيسات الشيطانية، وهنا يُشبهون متناولي المخدرات عامة والمهلوسة منها خاصة، وهذا أمر معروف وثابت قطعا. لكن الرجل المسكين وأصحابه ظنوا أنهم دخلوا عالم الأنوار والملائكة والنبوة، والإيمان. والدليل القطعي على صحة قولي هذا أن ما قاله الغزالي مخالف للشرع. وأن أحوالهم هذه انتهت بهم إلى القول بوحدة الوجود وهي عقيدة هادمة للوحي والعقل والعلم. ولأن حصيلة هذه الأحوال المزعومة صفرية، فلم يكسب منها الرجل وأصحابه شيئا حقيقيا إلا الأوهام والأباطيل والخرافات، وقد فحصت كتابه إحياء علوم الدين كله لم أجد فيه علما ولا فكرا صحيحا جناه الغزالي من تلك الهلوسات والتلبيسات. ولأنه أيضا كان غارقا في الأخطاء والانحرافات الشرعية والتاريخية والعلمية وقد ذكرتُ منها العشرات من باب التمثيل الواسع لا الحصر، مما يعني قطعا أن تلك المكاشفات والمشاهدات المزعومة ليست حقائق ولا علوما وإنما هي أوهام وهلوسات وخداع حواس وتلبيسات شيطانية.

وثالثا إن قول الرجل: ((وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الأسنى. بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول: وكان ما كان مما لستُ أذكرهُ ... فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ)) . هو شاهد آخر ضده ، فهو يأمرنا أن نظن خيرا به ، ونصدق مزاعمه بلا دليل، وهذا شاهد على فساد وبطلان تلك الأحوال، لأنها لو كانت صحيحة لوجدت الأدلة التي تشهد لها بالصحة كآثار من آثارها، ولَما كانت باطلة ، وقد وجدنا الشواهد على بطلانها. ولا يصح أن نترك الشرع والعقل والعلم ونصدق الغزالي في أوهامه وأباطيله وخرافاته. فلماذا عجز عن إقامة الأدلة الموضوعية الصحيحة ليُثبت مزاعمه ؟؟ فلما عجز طالبنا أن نحسن فيه الظن ونصدق بخرافاته بلا دليل

، وهذا لا يصح أن يقوله عالم ، وهو نقض لما قاله سابقا في دعوته إلى طلب الدليل والتخلص من التقليد، فهاهو يدعونا إلى تقليده وترك الأدلة والشرع والعقل والعلم لنصدق بهلوسات الصوفية وتلبيساتهم !! .

ومن جهة أخرى فإن الغزالي أخفى ما كان يعتقده ولم يُصرح بالحالة التي ينتهي إليها الصوفية في غيبوبتهم وهلوساتهم واكتفى بتخطئة من يصفها بأنها حلول، أو اتحاد ، أو وصول . لكنه لم يتطرق إلى حالة الفناء في الله ومعناها عند الصوفية، وهي التي لم يشرحها ولا أنكرها. لأن الصوفية لا يقولون بالحلول لأنه يقوم على وجود كائنين ، واحد منهما حل في الآخر. ولأن الاتحاد يتطلب اثنين امتزجا في بعضهما، ولأن الوصول يعني وجود اثنين أيضا بوصول واحد إلى الآخر. لكن الفناء في الله يعني زوال الصوفي عن نفسه ومحيطه وفنائه في الله ليكتشف أنه هو الله وأن كل ما كان يراه هو إضافات وامتدادات شكلية لله. فيكتشف أن الله هو الكون والكون هو الله، فلا موجود إلا الله . وهذه العقيدة قررها الغزالي مرات في إحياء علوم الدين عندما أكد على أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله ، وفي مواضع أخرى قال: لا موجود إلا الله وأفعاله، وأكد على أن الكائنات التي نراها لا وجود حقيقي لها بأفعالها ولا بذواتها وإنما هي إضافات وامتدادات لله حسب زعمه[1]. هذه هي ضلالة وحدة الوجود التي أخفاها الغزالي في كلامه السابق وافتخر بها ودعانا إلى تصديقه في قوله بها بلا دليل!! .

والقول السادس مفاده أن الغزالي قال : ((وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء هي على التحقيق بدايات الأنبياء... ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم، حقيقة النبوة وخاصيتها ولا بد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها))[2].

وأقول: أولا كلامه هذا غير صحيح في معظمه، ويتضمن كلاما خطيرا جدا يُمهد للقول بنبوة الصوفية بدعوى إلهامات أولياء الصوفية وعلمهم لغيوب السموات والأرض، وهذا الأمر صرّح به الغزالي في إحياء علوم الدين وبينا فساد ه وبطلانه في نقدنا له.

[1] أنظر كتابنا: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 40 .

وثانيا إن أحدا لن يدرك حقيقة النبوة إلا النبي ولن يدركها صوفي ولا ولي، وغير النبي يعرف بعض صفاتها بما ورد في الوحي والأخبار الصحيحة عن النبي-عليه الصلاة والسلام- وأما قول الرجل بأنه بالتصوف يدرك جانبا منها أو كلها كما صرّح في الإحياء بدعوى المكاشفة فباطل قطعا. لأن النبوة لا تكتسب بالعلم ولا بالعبادات ، وإنما هي اصطفاء من الله تعالى لمن اختاره نبيا، وعليه فلن يعرف حقيقتها ذوقيا وممارسة إلا نبي. وبما أن الغزالي والصوفية ليسوا أنبياء فلن يعرفوا حقيقة النبوة ذوقيا ، ومزاعمهم باطلة دون شك، وما هي إلا هلوسات وتلبيسات شيطانية.

وليس صحيحا أن الكرامات هي على التحقيق بدايات الأنبياء، لأن ألأولياء في دين الإسلام هم الذين آمنوا وكانوا يتقولن ، لقوله سبحانه: ((أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)(يونس:16- 63))، وهؤلاء ليسوا بأنبياء ولا أنصافهم ، ولا قريبين منهم. وأولياء الله تعالى يرزقهم سبحانه الإيمان والأنوار والمواجيد والأذواق الصحيحة، وينصرهم ويدافع عنهم لقوله سبحانه : ((وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)(الطلاق: 3))، فهذه هي الكرامات التي يرزق الله تعالى عباده المؤمنين وليست هي نبوة ، ولا بداياتها ولا نصفها، ولن يكون الولي نبيا . وأما أولياء الصوفية الذين تكلم عنهم الغزالي فهم ليسوا من أولياء دين الإسلام وإنما هم من أولياء الدين الصوفي وأنبيائه من جهة ، ويصلون بالولاية – حسب زعمهم- إلى علم أسرار الكون وغيوبه من جهة أخرى؛ ثم يبلغون درجة الفناء وفيها يصبحون أربابا وآلهة بعقيدة وحدة الوجود التي قررها الغزالي في الإحياء ودافع عنها . ولهذا اهتم الغزالي بأمر النبوة ليتخذها وسيلة يتستر بها لتقرير الولاية الصوفية التي هي نبوة الصوفية القائمة على الإلهام حسب ما ذكره الغزالي في الإحياء. ولهذا قال: ((ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم، حقيقة النبوة وخاصيتها ولا بد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها))[1]. فماذا يفعل الرجل بأصل النبوة ؟، ولماذا الحاجة ماسة إليها، أليست النبوة شأن إلهي وخاصة بالأنبياء ؟؟ وما دخل الصوفية في أمر النبوة ؟؟ أليس أولياء الله الحقيقيين همهم الوحيد والأساسي عبادة الله وتطبيق شرعه قلبا وقالبا ؟؟. ولماذا لم يهتم بالنبوة وطريقها في الهداية واليقين عندما نقد وسائل المعرفة وطرق الطالبين ؟؟ ، ولماذا لم يلتزم

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 40 .

بطريق النبوة في طلبه لليقين القلبي؟؟ . إن الجواب عن ذلك واضح ، وصرّح به الغزالي كما ذكرناه ، إنه طريق إلى النبوة الصوفية التي يتوصل إليها الرجل وأصحابه بخرافة المكاشفة والإلهام .

والقول السابع هو امتداد للسابق ، ومفاده أن الرجل تكلم عن النبوة تمهيدا لتقرير النبوة الصوفية بدعوى الولاية، فبدأ بالكلام عن النوم على أنه نموذج من خاصية النبوة، فقال: ((وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير... فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل))[1]. ووصف النبوة أيضا أنها طور وراء العقل، و ذكر أن النبي بلغ الطور الذي وراء العقل و((انفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يدركها العقل))[2].

وأقول: كلامه هذا غير صحيح في معظمه ، وفيه تضليل وتحريف ، لأنه أولا إن ما يراه النائم من منامات ليس إدراكا للغيب ، ولا يجعله النوم يدرك ما سيكون من الغيب كما زعم الرجل. لأن أمر الغيب محسوم شرعا وواقعا بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، قال تعالى: ((قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ))- سورة النمل/65- و((عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (الجن)–سورة الجن /26- ،و((ما كان الله ليطلعكم على الغيب)) – سورة آل عمران/179- ، و((قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ،ولا أعلم الغيب))-سورة الأنعام/50- ،و((لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير))-سورة الأعراف/188- ،و((فقل إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين))-سورة يونس /20- ، و((إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(النحل : 74)). والغريب من أمر الغزالي هنا أنه ضرب هنا صفحا عن النصوص الشرعية التي تبطل زعمه. والمنامات كما هو معروف شرعا وواقعا هي إما من النفس، أو المَلَك ، أو من الشيطان ، وقد جاء عن النبي- عليه الصلاة والسلام- أن الرؤيا ثلاثة أنواع: رحماني، ونفسي، وشيطاني[3]. وقد يختلط هذا كله في

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 43 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 53 ، 57 .
[3] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج 8 ص: 15 ، رقم: 3014 .

المنام الواحد. ومضمون المنامات منها ما يكون استرجاعا للماضي، ومنها ما هو أضغاث أحلام، ومنها ما هو رؤية ما يتوقع الإنسان فعله ، ومنها ما هو مبشرات وإنذارات . وبما أن الله تعالى نفى أن يكون الإنسان يعلم الغيب فلا شك أن الإنسان لن يعلمه في المنام ولا في اليقظة، وما يراه في المنام من المَلَك ليس غيبا ، وإنما هو من وسائل المعرفة النسبية الضعيفة والمحدودة جدا عند كل الناس من جهة ، وهي لا تتجاوز المبشرات والإنذارات من جهة أخرى. والدليل على ذلك هو أن الواقع يشهد بأنه لم نجد إنسانا من الصوفية ولا غيرهم أصبح يعلم الغيب بالمنامات ولا حوّلته إلى عالم عبقري كبير. والشاهد على ذلك أيضا أن الغزالي القائل بذلك لم يكن يعلم الغيب وقد وقع في عشرات الأخطاء الشرعية والتاريخية والعلمية، فلو كان التصوف جعله يعلم الغيب ما وقع في تلك الأخطاء والانحرافات الكثيرة جدا والتي تُعد بالعشرات.

وثانيا ليس صحيحا أن النبوة طور من أطوار العقل أو ورائه، أو فوقه، فهذا غير صحيح وفيه التباس ، وضعيف جدا أيضا، وهو تعبير مشبوه يتضمن التمهيد للقول بالإلهام الصوفي- النبوة الصوفية- ، لأن النبوة لا تُكتسب ولا تورث، ولا هي متعارضة مع العقل، وإنما هي اصطفاء من الله تعالى وتكليف للإنسان الذي اختاره نبيا . قال تعالى: ((اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ))(الأنعام: 124))، و((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(الشورى: 51))، و((إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً)(النساء: 163))، و((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ)(الأنعام: 93)). فواضح من كلام الغزالي أنه يُمهد ليصل إلى تقرير نبوة الصوفية بدعوى الولاية والمكاشفة والإلهام الذي يجعلهم فوق الأنبياء ، بل آلهة يعلمون غيوب السموات والأرض وأسرارها كما صرّح بذلك في كتابه إحياء علوم الدين .

وليس صحيحا أن النبوة يظهر في نورها الغيب ، فهذا باطل قطعا لأن الله تعالى ذكر صراحة بأن النبي- عليه الصلاة والسلام- لم يكن يعلم الغيب قال تعالى : ((لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير))-سورة

الأعراف/188- ،و((فقل إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين)(سورة يونس /20-))، و((وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ)(هود: 31)). ولهذا كان النبي أحيانا يتوقف في قضايا لم يصله فيها وحي، كما في قوله تعالى: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (البقرة : 189)) ومنها سهوه عليه الصلاة والسلام في الصلاة فنبهه الصحابة، فسجد سجود السهو وقال: « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون »[1] ، ومنها ما حدث له مع عبد الله بن أم مكتوم، قال تعالى: ((عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى)(عبس: 1 - 10))، وعاتبه الله تعالى في أسرى بدر بقوله : ((مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(الأنفال: 67)) .فلو كان النبي-عليه الصلاة والسلام- يعلم الغيب ما وقع في كل ذلك .
ويُلاحظ على الغزالي أنه تكلم في أمر خطير جدا ، مع أن الشرع قال فيه كلمته الواضحة والقطعية المخالفة لزعمه ، لكنه ضرب صفحا عنه وواصل تقرير ما يريد قوله !! ، فهل سيعود إليه ويُؤّله تأويلات فاسدة ؟؟. نعم فإنه بعد عدة صفحات عاد وقرر نفس الكلام وتضمن ما يريد الرجل الوصول إليه ، عندما ذكر أن النبي بلغ الطور الذي وراء العقل و((انفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التي لا يدركها العقل))[2]. قوله هذا مشبوه ويتضمن التمهيد للقول بالإلهام الصوفي الذي يتم بالمكاشفة وفيها يعلم الصوفي أسرار الكون وغيوبه وهذا صرّح به في كتابه الإحياء. وقوله: ((الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص)) هو شاهد على أن الصوفية هم أيضا من الخواص الذين يعلمون الغيب، فالرجل كثيرا ما استثنى شيوخ الصوفية وألحقهم بالأنبياء كما بيناه في هدا الكتاب وغيره. فالرجل أكثر الكلام عن النبوة من هذه الجهة ليُشرعن للتصوف في قوله بالإلهام الإلهي والمكاشفة التي تنتهي بالصوفية إلى ضلالة وحدة الوجود: لا موجود إلا الله. وقد رأيناه في بداية كتابه المنقذ من الضلال كيف ضرب صفحا عن الإسلام كوسيلة للمعرفة، ومصدر وطريق لليقين، ولم يَزِن به

---
[1] مسلم: الصحيح ، ج 2 ص: 85 ، رقم: 1311 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 57 .

التصوف عندما تصوف واتخذه طريقا للنجاة مع أنه مخالف للشرع أصولا وفروعا وغاية. ثم بعدما استقر على يقينه الزائف ضرب صفحا أيضا عن الإسلام كطريق نجاة ومنهج حياة ، وركز طويلا لفاً ودوارناً على النبوة لإثبات النبوة إمكانا ووجودا بالتركيز على حكاية الغيب وطور ما وراء العقل ، مع أنه كان يعيش في مجتمع مسلم لم تكن مشكلة النبوة فيه مطروحة إلا عند قلة قليلة من المنحرفين من الفلاسفة وأمثالهم . فلماذا هذا التركيز عليها ؟؟!! إن الجواب واضح ، وقد صرّح به مرارا في كتابه الإحياء، إنه يمهد لتقرير الإلهام الصوفي ليجعله مع الوحي : الأول خاص بأصحاب المكاشفة وهم شيوخ الصوفية ويمثلون أنبياء التصوف ولا خاتم لهم، والثاني خاص بأصحاب الوحي وهم الأنبياء وخاتمهم محمد-عليه الصلاة والسلام- .

ثم أن الرجل ذكر أن القدر الذي ذكره عن النبوة كافٍ((في تنبيه المتفلسفة، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان))[1]. فالهدف من الكلام عن النبوة لشدة الحاجة إليه في عصر الغزالي بسبب المتفلسفة. لكن الحقيقة أكثر من ذلك، وإنما الحاجة كانت أكبر ليس للرد على الفلاسفة فقط وإنما من أجل التصوف لشرعنته وإخفاء عقائده بالدين ونشره والدعوة إليه. وإلا لماذا أغفل الإسلام كوسيلة من وسائل المعرفة ومصدر وطريق من طرق اليقين؟؟، ولماذا تبنى التصوف من دون أن يَزنه بميزان الشرع ولا العقل ولا العلم فقرره تقريرا وفرضه فرضا وجند نفسه للدعوة إليه والثناء عليه بما ليس فيه، وجعل كلامه دليلا وبرهانا بنفسه على صحة تبنيه له ؟؟ !!. ثم بعد ذلك توقف ولم يواصل الدعوة إلى الإسلام عقيدة ومنهجا للحياة قلبا وقالبا، فلماذا ؟؟. مع أن الدعوة إلى النبوة إمكانا ووجودا لا تكفي وحدها، وإنما هي الخطوة الأولى ، تأتي بعدها خطوات أخرى. وقد أنهى كتابه المنقذ من الضلال ولم يفعل ذلك مع الفلاسفة، ولا دعا الأمة إلى الرجوع إلى دينها ولا عرض الإسلام دينا كاملا شاملا لسعادة الدنيا والآخرة .

والقول الثامن: مفاده أن الغزالي واصل كلامه عن النبوة وعلاقة علمي الطب والفلك بها ، للوصول إلى الإلهام الصوفي، فقال: ((والشك في النبوة، إما أن يقع في إمكانها، أو في وجودها ووقوعها، أو في حصولها لشخص معين. ودليل إمكانها وجودها. ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل، كعلم الطب والنجوم، فإن من بحث عنها علم

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 57 .

بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي، وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة، فكيف ينال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل، وهو المراد بالنبوة، لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرنا فقطرة من بحرها، إنما ذكرناها لأن معك نموذجاً منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً))[1].

وأقول: كلامه هذا غير صحيح في معظمه ، وفيه تضليل وتحريف ونية مبيتة ليصل إلى تقرير الإلهام الصوفي بدعوى المكاشفة. ومعناه: فكما أن النبي يتلقى الوحي بالنبوة، والنائم يدرك الغيب بالمنامات ، وعلماء الطب والفلك تلقوا ذلك بالإلهام الإلهي ولا دخل للعقل في ذلك، فكذلك الصوفي يتلقى الإلهام الإلهي بالمكاشفة . وزعمه هذه باطل ، ومثاله المتعلق بالطب والفلك غير صحيح قطعا قاله الرجل لغاية في نفسه. إنه لا يصح بدليل الشرع والتاريخ والواقع.

فأما من الشرع فإنه من الثابت أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم حقائق كثيرة عن علم الفلك ، وهي من مظاهر الإعجاز القرآني المبهرة من جهة، وحثنا أيضا على السير في الأرض والتدبر في النجوم وفي مختلف مظاهر الطبيعة لاكتشاف سننها وتسخيرها لخدمة الإنسان، بل وحثنا على الصعود إلى الفضاء من جهة ثانية . قال سبحانه: ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)(الرحمن: 33)) ، لكنه لم يقل لنا أنه سيعلمنا علم الفلك والطب بالإلهام الإلهي فهذا لم يحدث. والشاهد على ذلك أيضا أنه صح عن النبي-عليه الصلاة والسلام- أنه قال: ((تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء ،))[2]، ورخّص في الرقية[3]. وأباح الكي أيضا[4] . فلو

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 43 – 44 .
[2] الألباني: صحيح ابن ماجة، ج 2 ص: 252 ، رقم: 2772 .
[3] مسلم: الصحيح، ج 7 ص: 13 ، رقم: 5829 .والألباني: صحيح ابن ماجة، ج 2 ص: 266 ،268، رقم: 2834 ، 2843 .
[4] مسلم: الصحيح، ج 7 ص:22 ، رقم: 5877 ..والألباني: صحيح ابن ماجة، ج 4 ص: 68 ، رقم: 3485 .

كان تعلم الطب وممارسته بالإلهام الإلهي ما أمرنا بالحث والتجربة طلبا للدواء والعلاج .

وأما من التاريخ فمن الثابت أن الإنسان شيد علومه كالطب والفلك بالبحث والتجربة والتأمل في الطبيعة ، وبرصد حركات النجوم سنوات طويلة بآلات الرصد،وسجل نتائجه في سجلات ، ونفس الأمر حدث في الطب فمنذ القديم وإلى اليوم والإنسان يبحث ويجرب الأدوية ويسجل خواصها في مصنفات من دون أي إلهام إلهي كما ادعى الغزالي. ومن الشواهد الدالة على ذلك ما يأتي:
أولها إنه تم العثور على مصنفات كثيرة تعود إلى التاريخ القديم أيام البابليين والآشوريين ، صنفوها في مختلف العلوم ، وهي أدلة دامغة على ازدهار العلوم بحثا وتأليفا و تطبيقا و إبداعا في ذلك الزمن القديم. منها : قوائم مُعجمية لغوية ، و معاجم خاصة بالمترادفات ، و رسائل في الفلك ... والطب ، و الكيمياء ، وعلم الحيوان ،وعلم النبات ، وغيرها ، وهي مجموعة ((تُروّع المرء حقا بسعتها و تنوّعها))[1].

والشاهد الثاني يتعلق بعلم الفلك عند البابليين أقاموه على أُسس رياضية ، وتوصلوا ببحوثهم وتجاربهم إلى نتائج كثيرة ، منها اعتبار الشمس مركز الكون، والقول بتأثير القمر في المد والجزر ،واستخدموا آلات في أرصادهم . وقسموا دائرة السماء إلى 12 جزءا ، ورصدوا بعض الكواكب كالزهرة . و استخدموا ساعات مائية لمعرفة أجزاء الليل ، و ساعات شمسية لقياس أجزاء النهار[2] . وبفضل ما كان عندهم من معارف فلكية هامة ، تمكنوا من التنبؤ بحدوث الخسوف والكسوف ، وعرفوا متى يكون القمر أقرب مسافة من الأرض ، واستخدموا التقويمين الشمسي والقمري . و قد بنوا علم الفلك على أُسس سليمة ، وعنهم أخذه الإغريق[3].

والشاهد الثالث يتعلق بعلم الطب : وصفا و تشريحا و ممارسة ، فقد دلت الألواح الطينية الأشورية التي تعود إلى ما بين: 668-626 قبل الميلاد ، دلت على أن الطب الأشوري عرف تشريح الحيوان ومقارنته بالإنسان ،

---

[1] سبتينو موسكاني : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، دار الرقي ، بيروت ، 1986 ، ص: 93 ، 94 .
[2] محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1987 ، ص: 251 .
[3] نعيم فرج : موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ، دار الفكر ، دمشق ، ص: 54 . و محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق ، ص: 251 .

و هذا مكنهم من معرفة وظائف أعضاء الإنسان ، فكانت لهم معرفة دقيقة بأحشاء الجسم وأوصافها ووظائفها كالقلب ،والكبد ،والبنكرياس، والطحال ، وعمليات التنفس والرئة وقياس النبض ... وذُكرت فيها أيضا الخطوات السليمة لعلاج الجراحي ، كالتنظيف ، والتعقيم . وكانت لأطبائهم عمليات جراحية كثيرة ، كتجبير الكسور ،والتدخل لالتقاط الجنين بملقط وسحبه إلى الخارج . ودلت الآثار على أنه كان لأطباء الأشوريين بحوث أو كتب تتعلق بالطب . وقد تطورت على أيديهم صناعة الأدوية ، عندما ازدهرت عندهم الكيمياء[1] .

وتوصل البابليون إلى معلومات هامة تتعلق بالتشخيص ، والتشريح ، والعقاقير . وأقاموا طبهم على التخصص ، كالجراحين المعالجين بالأعشاب . و صنفوا الأمراض ، ووصفوا أعراضها وعلاجها ،و كيفية استعمال الأدوية المتنوعة ، . و قسموا الأدوية حسب مصدرها : نباتية ، حيوانية ، معدنية ،و حسب استعمالها أيضا ، كالتي تُستعمل خارج الجسم ، و تُتناول عن طريق الفم . و استخدموا آلات لوضع الأدوية في أماكن دقيقة من الجسم ، كالعين و الأذن[2] .

و من ذلك أيضا فقد درس السومريون البابليون الأشوريون تركيب أجسام الحيوانات المذبوحة ، وفحصوها بدقة . و قد وصلتنا تصاميم لأكباد مصنوعة من الطين بشكل رائع ، لها عدة أغراض ، منها وسائل إيضاح في علم التشريح[3] .

و منها أنه وصلتنا برديات طبية هامة عن الطب المصري ، منها بردية طولها 15 قدما ترجع إلى نجو القرن 17 قبل الميلاد ، تضمنت 48 حالة من الحالات الجراحية التطبيقية . ولكل حالة بحث دقيق حولها بطريقة قطاعية : تشخيصا ، وفحصا ، وعلاجا . وتضمنت أيضا تعليقات حول المصطلحات العلمية الواردة فيها . وأشار كاتبها إلى حقيقة لم تُعرف في الكتب الطبية إلا في القرن 18 م ، هي أن المخ هو المركز المُسيطر على أطراف الجسم[4] .

[1] خزعل الماجدي: بخور الآلهة ، ط1 ، الأهلية للنشر ، الأردن ، 1998 ، ص: 169 ، 170 ، 173 .
[2] محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق ، ص: 254 .
[3] نعيم فرج : : موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص: 55 .
[4] السيد النشار : تاريخ الكتب و المكتبات في مصر القديمة ، دار الثقافة العلمية ، مصر ، 1999 ، ص: 38 .

ومنها بردية أخرى تعود إلى نفس الفترة تناولت وصفا للطب ،والقلب والأوعية ، ووظائف الأعضاء ، . وشملت أيضا على باب مُطوّل في الأورام ،وعليه ثَبْت بأسماء 700 دواء لكل الأمراض التي كانت معروفة لديهم ، كأمراض البطن ، والجلد ، والعين ، والجروح[1]. ومنها بردية تضمنت 710 تشخيصات من أمراض النساء والتوليد . ووصفت أيضا أقماع اللبوس لمنع الحمل ، في ثلاث صفحات ، بدأت بالحديث عن المرض ، ثم أعراضه ، و تشخيصه ، وعلاجه والعقاقير الموصوفة له[2] . و كانت في مصر مدارس مُتخصصة في الطب ، كمدرسة ساو ، و أون في مصر القديمة ، و كان طلابها يقيمون فيها بفضل نظامها الداخلي[3] .

وأما في زماننا فالأبحاث أكثر علمية وشمولية وازدهار، وقد أستطاع الإنسان أن يرتاد الفضاء ويرسل المسابير والأقمار الصناعية للبحث والاستكشاف، ونفس الأمر ينطق على الطب وغيره من العلوم . وكل هذه تتم بجهود الإنسان التأملية والتجريبية ولا تتم بالإلهام الإلهي كما زعم الرجل ليقرر في النهاية الكشف الصوفي وإلهامات الصوفية. فقوله بأن من العلوم كعلم الطب والنجوم لا تُنال بالعقل والتجربة هو كلام باطل قطعا، وينقض عليه غايته التي يخطط لها عن سبق إصرار وترصد. وقد تبين أن الإنسان منذ القديم وإلى يومنا هذا كان يرصد حركات النجوم ويسجل ملاحظاته لسنين طويلة إلى جانب تأملاته واستنتاجاته. وعدم علمه ببعض حركات النجوم التي لا تتكرر إلا بعد قرون لا ينفي ممارسته للرصد والتجارب ، والقراءات المستقبلية ، ولا يثبت الإلهام الإلهي المزعوم الذي قال به الغزالي. وكثير من الظواهر الفلكية ظل الإنسان جاهلا بها أو عنده معلومات غير صحيحة عنها وبقي على ذلك قرونا طويلة ولم يتلق فيها أي وحي إلهي حتى جاء العصر الحديث وفيه تمت معرفتها معرفة صحيحة .

ومن جهة أخرى فقد تبين أن علماء الفلك والأطباء تكلموا في أمور كثيرة لم يكن في مقدورهم رؤيتها ولا التأكد منها ، ثم تبين حديثا أنهم أخطؤوا فيما قالوه؛ وهذا يعني بالضرورة أنهم تكلموا فيها اجتهادا بحثا عن الحقيقة ولم يكن إلهاما إلهيا ، فلو كان كذلك لكانت مواقفهم صحيحة. من ذلك مثلا أن أبا حامد الغزالي نقل آراءً ومواقف على أنها صحيحة عن الأطباء والفلكيين ذكرها في كتابه الإحياء، لكنها لم تكن صحيحة ، فلا هم

[1] نفسه ، ص: 38 .
[2] نعيم فرج :نفس المرجع ، ص: 39 . و سمير أديب : نفس المرجع ، ص: 571 و ما بعدها .
[3] سمير أديب : موسوعة الحضارة المصرية ، ص: 574 .

أصابوا فيها، ولا هو صححها ولا انتبه لها بإلهامه الصوفي المزعوم !! . منها مثلا النماذج الآتية:

أولها: قال الغزالي: ((خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا... وجعلها قارة لا تتحرك...ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم))[1].

إن قوله بثبات الأرض وعدم حركتها غير صحيح، تابع فيه قول أرسطو والفلاسفة المسلمين كيعقوب الكندي، والكندي، وابن سينا[2]. لكن الحقيقة هي أن الأرض متحركة وليست ثابتة، وقد قام الدليل العلمي الصحيح على حركتها ، عندما تمكن الإنسان من ارتياد الفضاء و تصوير الأرض وهي سابحة في الفضاء. ولو تدبر الغزالي في القرآن جيدا لتبين له خطأ موقفه في قوله بثبات الأرض ولأستنتج أنها متحركة. لأن في القرآن الكريم إشارات تدل على أن الأرض تتحرك حركة مستديرة ، أشارت إليها بطريقة خفية حكيمة مُتضمنة في الآيات يستنتجها كل من تدبر فيها بطريقة صحيحة ، علما بأنه لا توجد في القرآن الكريم آية نصت على ثبات الأرض.

والنموذج الثاني: يقول الغزالي: ((فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ،فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة... وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها إلى السموات السبع ...))[3].

قوله هذا تضمن خطأين واضحين: الأول ليس صحيحا أن الأرض أقل المخلوقات ضمن الأجرام السماوية، فهذا كلام غير علمي تماما، فالقمر مثلا أقل منها حجما، وكذلك الكويكبات الموجودة في المجموعة الشمسية فهي أقل من الأرض بكثير. والأرض أكبر من كوكب عطارد بفارق كبير.

---

[1] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 5 ص: 107 .

[2] ابن رشد : تلخيص السماء و العالم ، حققه جمال الدين العلوي ، ص: 268 ، 269 و ما بعدها . و زينب عفيفي : العالم في فلسفة ابن رشد الطبيعية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1993 ، ص: 70 . و ابن سينا : علم الهيئة ، المقالة الأولى ، ص: 4 . و ابن سينا : الطبيعيات ، ص: 194 ، 195 .و علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1992 ، ص: 227 . و محمد عبد الرحمن مرحبا : الكندي - فلسفته مُنتخبات – عويدات ، بيروت ، باريس ، 1985 ص: 71 .و زينب عفيفي: الفلسفة الطبيعية و الإلهية عند الفارابي ، ص: 233 .

[3] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 4 ص: 429 .

وهناك نجوم عديدة بعيدة عن الأرض وهي أصغر منها بكثير بل بعضها كالأقزام[1].

والخطأ الثاني يتعلق بحجم الشمس بالمقارنة إلى الأرض، فليس صحيحا أن الشمس أكبر من الأرض ب" مائة ونيفا وستين مرة" ، وإنما أكبر منها ب: 1,300,000 مرة[2] . فأين حكاية المكاشفة ومعرفة أسرار السموات والأرض – المُلك والملكوت- التي كررها الغزالي كثيرا وتفاخر وتعالم بها على غير الصوفية وتسلط بها عليهم ؟؟ !! .

والنموذج الثالث مفاده أن أبا حامد الغزالي تكلم عن تكوّن الجنين ، فذكر أنه يتكون من المني ودم الحيض[3]. هو هنا قد أخطأ خطأين : الأول أنه أغفل دور ماء المرأة في حدوث الإخصاب وتكوّن الجنين، مع أنها طرف أساسي في ذلك . والثاني أنه أخذ برأي أرسطو وأصحابه في قولهم بأن الجنين يتكون من مني الرجل ودم الحيض[4] ، وهذا غير صحيح قطعا، ولا دخل للحيض هنا أصلا، والجنين يتكون من مني الرجل وبويضة المرأة. فأين حكاية المكاشفة ومعرفة أسرار الكون ؟؟.

والنموذج الأخير- الرابع -: يقول الغزالي: ((وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ؟، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟.ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه؟))[5].

وأقول: أخطأ الرجل هنا خطأين واضحين: الأول هو أن دم الحيض لا يُستجلب من أعماق العروق ويُجمع في الرحم كما قال الرجل، وإنما هو يتكون في الرحم من الدم والمواد المبطنة للرحم التي كانت تنتظر حدوث التلقيح لاستقبال الجنين، فإذا لم يحدث الحمل فسد الدم وبالمكونات المُبطنة للرحم التي كانت معه ، فيخرج كل ذلك أثناء الدورة الشهرية ليتطهر الرحم وينتظر الإخصاب مرة أخرى .

---

[1] أنظر: الموسوعة العالمية العربية ، مادة: النظام الشمسي، عطارد، القمر . و آن تري هوايت: النجوم، ترجمة إسماعيل حقي، ط 7 ، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص: 86 .

[2] أنظر: عبد الحميد سماحة: في أعماق الفضاء، دار الشروق، القاهرة، 1980 ، ص: 51 .

[3] الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج 4 ص: 152 .

[4] للتوسع في أخطاء أرسطو العلمية أنظر كتابنا: جنايات أرسطو على العقل والعبم. والكتاب منشور ورقيا وإلكترونيا .

[5] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 5 ص: 102 .

والخطأ الثاني هو أنه ليس صحيحا أن الجنين يتغذى بماء الحيض ، فهذا باطل قطعا . لأن الحمل لا يحدث أثناء الحيض ، وعندما يحدث الحمل لا تحيض المرأة ، وإنما يتغذى الجنين من أمه بواسطة الحبل السري[1].

فأين حكاية المكاشفة ومعرفة أسرار الكون، والإلهام الإلهي الذي ادعاه الغزالي للصوفية ولعلماء الفلك والطب ؟؟.

ثم أن أبا حامد الغزالي قال: ((وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء))[2].

وأقول: أولا إن كلامه هذا غير صحيح في معظمه وهو امتداد لكلامه السابق ليُقرر به أنه كما أن أطباء الأبدان تلقوا الإلهام الإلهي في الطب، وعن الأنبياء أخذوا خواص الأشياء، كذلك أطباء القلوب وهم الصوفية يتلقون أيضا الإلهام من مشكاة النبوة، وهذا كان قد أشار إليه عندما زعم أن التصوف مأخوذ من مشكاة النبوة، ليقرر غاية في نفسه.

وثانيا إننا لا ننكر بأن الشرع أمرنا بالتداوي وحث على ممارسة الطب بحثا عن العلاج ، لكن الأمر ليس كما زعم الرجل لغاية في نفسه، لأن نبينا- عليه الصلاة والسلام- كان له طب نبوي لكنه لم يُكوّن أطباء ولا علم الصحابة خواص الأشياء، وإنما صح عنه أنه قال: ((تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء))[3]، قال ذلك من جهة ، وقال للصحابة من جهة أخرى ((أنتم اعلم بأمور دنياكم))[4].

وثالثا إنه من الثابت قطعا قديما وحديثا أن ما وصل إليه الطب من اكتشافات وانتصارات في مختلف مجالات الطب علاجا ووقاية ، وفي الصيدلة والأدوية والعمليات الجراحية كان بفضل جهود الأطباء المتواصلة والمتكاتفة في البحوث والتجارب ولم يكن بتعليم من الأنبياء أبدا. ونحن نعلم يقينا أن ما حققه الطب الحديث والمعاصر من اكتشافات وانتصارات كثيرة

---

[1] الموسوعة العالمية العربية، مادة: الجنين، الرضيع ، الحمل ، الحبل السري.
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 46 .
[3] الألباني: صحيح ابن ماجة، ج 2 ص: 252 ، رقم: 2772 .
[4] مسلم: الصحيح ، ج 7 ص: 95 ، رقم 6277 .

ومُبهرة ، وما بينه من أخطاء كثيرة جدا وقع فيها الأطباء القدماء تم كل ذلك في القرون الثلاثة الأخيرة ، وكانت النبوة قد خُتمت بمحمد –عليه الصلاة والسلام- بأكثر من عشرة قرون !! . فأين هؤلاء الأنبياء الذين علموا الأطباء ما اكتشفوه حديثا ؟؟ !! . ومتى علموهم وأين ؟؟ .

ومما يُبطل زعمه أيضا أن الطب الحديث بيّن أن الأطباء القدماء وقعوا في أخطاء كثيرة جدا في مختلف مجالات الطب ، فلو كان الأنبياء هم الذين علموهم ما وقعوا في تلك الأخطاء. وبما أنهم وقعوا فيها دلّ هذا قطعا على بطلان ما قاله الغزالي، وإنما الأطباء هم الذين كانوا يكتشفون بأنفسهم فأصابوا في جوانب وأخطؤوا في أخرى[1].

والقول التاسع: بعدما ذكر الغزالي نموذجين لتقريب أصل النبوة وخواصها التي لا يدركها العقل،و هما: ما يدركه الإنسان من غيب في النوم، وما يتلقاه علماء الفلك في الطب من إلهام إلهي ، فإنه تكلم عن خواصها الذوقية، بقوله: ((وأما ما عدا هذا من خواص النبوة، فإنما يدرك بالذوق، من سلوك طريق التصوف، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم، ولولاه لما صدقت به. فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج، ولا تفهمها أصلاً، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم. وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة ... وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة، كافٍ في الغرض الذي أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه))[2].

وأقول: إن الرجل تكلم عن النبوة أصلا وخواصا من دون أن يرجع إلى أدلة الشرع ، وهي تجمع بين الاستدلال العقلي والإيماني، وكان عليه أن يبدأ بها . فمن الشرع أولا إن الناس الذين أنكروا النبوة سجل القرآن مواقفهم واعتراضاتهم ورد عليهم ردا مفحما ، منها قوله تعالى: ((وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً

[1] ذكرت نماذج كثيرة من أخطاء الأطباء القدماء في كتاب: جنايات أرسطو على العقل والعلم. وقد أورد الغزالي جانبا منها على أنها صحيحة في كتابه الإحياء، فبينت عدم صحتها في كتاب: التضليل والتحريف في كتاب علوم الدين. وذكرت بعضها فيما تقدم من كتابنا هذا . .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 43 – 44 ، 45.

وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)(الأنعام: 91))، و((وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً)(الإسراء : 94 - 95))، و((رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)(النساء : 165)).

والله تعالى عندما أرسل أنبياءه ومعهم براهينهم ومعجزاتهم ليردوا على المنكرين لم تكن كما ذكر الغزالي في الاستدلال بالنوم على إدراك الغيب، ولا بالطب وعلم الفلك لإثبات الإلهام الألهي، ولا بتعليم الأنبياء خواص الأشياء للأطباء ، وإنما من الثابت قطعا أن الله تعالى أرسل مع كل نبي أدلته وآياته وبيناته الدامغات التي تثبت نبوته بالحجج العقلية والمعجزات المحسوسة ، وآخرها القرآن الكريم الذي هو أم المعجزات تضمن كل أنواع الأدلة والآيات الباهرات الدامغات التاريخية، والعقلية، والعلمية، والتشريعية، والعددية . وليس من بينها ما استدل به الرجل، نعم استدل بالنوم على أنه من آيات الله، لكن ليس بالطريقة التي قالها الغزالي، كقوله تعالى: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر: 42))، لكن لا يوجد في الشرع بأن النائم يدرك الغيب .

وثانيا إن إثبات إمكانية حصول النبوة لا يحتاج إلى أدلة فوق العقل ولا ورائه ،ولا إلى أذواق الصوفية كما فعل الغزالي فذكر أمثلة ضعيفة ولم تكن صحيحة. لأن العقل البديهي لا ينكر إمكانية أن يتصل الخالق بمخلوقاته، فبما أن الله تعالى خلق الإنسان وسخر له ما في السموات والأرض، فمن المنطقي جدا أن يتصل به ليُعرّفه بأصله، ولماذا خلقه ؟، وما هو مصيره ؟، وكيف يعبده في هذه الدنيا ؟. وليس من الحكمة ولا من الرحمة أن يخلق الله تعالى الإنسان ويتركه سدى وعبثا تائها في هذا الكون لا يعرف عن أصله ومصيره وغايته شيئا .

وثالثا إن النبوة لا يحس بها ولا يتذوقها الصوفية ولا غيرهم من الناس، وإنما يتذوقها ويحس بها الأنبياء فقط ، وغيرهم يعرف صفاتها من الشرع، أو من الأخبار الصحيحة التي ذكرت بعض خصائصها التي كانت تظهر على النبي-عليه الصلاة والسلام- أثناء نزول الوحي عليه. والشاهد على

ذلك أيضا أن الصحابة- رضي الله عنهم- مع أن الله تعالى شهد لهم بالإيمان والعمل الصالح ،وكانوا مع النبي-عليه الصلاة والسلام- عن قرب وشاهدوه مرارا والوحي ينزل عليه ،إلا أنهم لم يتذوقوا النبوة ولا عرفوا خواصها وجدانيا وذوقيا ، وإنما عرفوا بعض خواصها من القرآن ومما شاهدوه ظاهرا على النبي وبما سألوه عن كيف يأتيه جبريل. من ذلك ((عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام -رضي الله عنه- سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول))[1].

ولذلك فإن استدلال الغزالي على أصل النبوة بما ذكره من النوم والإلهام الإلهي والأذواق ضعيف جدا ، وغير برئ يُمهد به ليقول بالإلهام الصوفي، وبه يسوي بين الأنبياء الذين جاؤوا بعلم المعاملة بواسطة الوحي وأولياء الصوفية الدين جاؤوا بعلم المكاشفة بواسطة الإلهام حسب زعمه. وهو هنا لم يذكر الإلهام الصوفي لأن موضوع الحديث لا يتطلبه، لكنه سيتكلم فيه ويعود إليه بدليل أنه ختم كلامه بقوله: ((فهذا القدر من حقيقة النبوة، كاف في الغرض الذي أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه))[2]. وقد ذكره وتوسع فيه في بداية كتابه إحياء علوم الدين، ثم كرره في مواضع أخرى من الكتاب. منها قوله: ((والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه.وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسي والاقتداء))[3].

وقال أيضا : ((والتعلم فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ، ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه

---

[1] البخاري: الصحيح ، ج 1 ص: 6 ، رقم: 2 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 43 – 44 ، 45.
[3] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص: 4 .

استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب. والأول يسمى إلهاما ونفثا في الروع . والثاني يسمى وحيا وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء))[1].

وقال : ((الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له ...))[2]. و ذكر أن أرباب القلوب- أولياء الصوفية- يُكاشفون بأسرار الملكوت- غيوب الكون وأسراره - ،ثم قال:((ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية))[3].

ولاشك أن تلك الأقوال تضمنت أباطيل وتحريفات كثيرة، لكن ليس هنا مجال الرد عليها[4].وإنما ذكرتها كشواهد على أن أبا حامد الغزالي تكلم عن النبوة وخواصها من منظور صوفي ولم يتكلم عنها بوحي صحيح ولا بعقلي صريح لغاية في نفسه تقريرا للتصوف وانتصارا له .

والقول الأخير – العاشر- : عندما تكلم الغزالي عن الصفات الأخلاقية عند الفلاسفة أرجع أصلها إلى الصوفية من دون أي دليل فقال: ((وأما الخُلقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق الناس وعيوبها، وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطله))[5].

أقول: أولا إن أصل الكلام في الأخلاق بصفاتها الحسنة والمذمومة وما يتعلق بها من مجاهدة النفس وتطهيرها وتربيتها تحلية وتخلية يعود إلى

---

[1] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3 ص: 24- 25 .
[2] الغزالي: الإحياء، ج 3 ص: 19 .
[3] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص : 82 .
[4] بينت بطلانها في كتاب : التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .
[5] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 23 .

الأنبياء وكتب الله المنزلة من دون شك ولا يصح نسبتها إلى الصوفية كما زعم الرجل ، لأن من مهام الرسل ودعواتهم الأساسية تزكية الناس وتربيتهم وتطهيرهم وتعليمهم مجاهدة أنفسهم ومحاسبتها ، بدليل قوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(الجمعة: 2))، و((فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(37 - 41)) ، و((وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)(ص: 26))، و((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(القلم: 4)) . وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إنما بعثت لأتمم مكارم))[1].

وثانيا لاشك أن العُبّاد والنُسّاك منذ القديم قد ساهموا في الاهتمام بالتربية ومجاهدة النفس ومحاسبتها بما كانوا فيه من تفرغ للعبادات بغض النظر هل هي شرعية أم لا ؟؟ ، بدليل قوله تعالى عن النصارى :((وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)(الحديد : 27)) .

وأخيرا - ثالثا - إن دور الصوفية في ذلك المجال لم يكن خاصا بهم لأن أمر التربية الخُلقية بمعناها الواسع ليس خاصا بالصوفية بل كل المربين والمعلمين من غير الصوفية ساهموا فيها تقنينا وممارسة ودعوة، لأنه أمر ضروري ولا يُمكن الاستغناء عنه من أجل قيام العمران البشري. بل وحتى عامة الناس ساهموا فيها بحكم أن من وسائل التربية أن الإنسان يُحاسب نفسه ويُجاهدها ويُربيها لأن اجتماعه مع الناس وعلاقاته به تفرض عليه ذلك . وبذلك يتبين أن ما قاله الغزالي غير صحيح كما حدده، وإنما هو يمدح الصوفية بحق وبغير حق بحكم أنه منهم وله غاية في نفسه يسعى لتحقيقها .

وأما مدحه للصوفية بأنهم ((هم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق الناس وعيوبها، وآفات أعمالها ما صرحوا بها،)). فهو كلام غير صحيح في معظمه لأن

---

[1] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج 1 ص: 112 ، رقم: 45 .

الصوفية مع تظاهرهم بذلك إلا أنهم هم من أكثر الفرق مخالفة للشرع وانحرافا عنه وتعطيلا له ، وقد قامت الأدلة القطعية بأن التصوف وأهله خالفوا الإسلام أصولا وفروعا وغاية حتى انتهى بهم الأمر إلى هدم الدين والعقل والعلم، وأن مجاهداتهم المزعومة كانت في مخالفة الشرع لا في الالتزام به من جهة ، وقد شهد التاريخ والواقع بأن الصوفية كانوا من أكثر الناس لهوا ورقصا وطلبا للدنيا وتقربا من الظالمين من جهة أخرى[1]. مما يعني أن مجاهداتهم أفسدت نفوسهم ولم تربها ولا زكتّها تزكية شرعية !! .

ثانيا: نتائج وتعاليق وتساؤلات:

يُستنتج من المبحث السابق أن تبني الغزالي للتصوف طريقا إلى اليقين القلبي الذي كان يبحث عنه ، أظهر حقائق هامة وخطيرة ، وترتبت عنه نتائج وتساؤلات عديدة تتعلق باختياره لذلك الطريق من بين طرق الطالبين التي نقدها واستبعدها.

منها أولا فقد تبين أن تبني الغزالي للتصوف طريقا إلى اليقين لم يكن صحيحا ولا صائبا ولا اختاره بطريقة علمية ،ولا وزنه بميزان الشرع ولا العقل ولا العلم واكتفي بالمدح والثناء والتغليط والتلبيس . ولو نقده نقدا علميا صحيحا ما تبناه ولتركه كما ترك الفلسفة وعلم الكلام والإمامة الشيعية . ولتبين له أيضا أن اهتمام التصوف بالجانب القلبي قائم على أباطيل وأوهام ووعود زائفة، ولا شرعية له من دين، ولا عقل، ولا علم. ولأدرك أيضا أن الشرع هو الذي جمع بين القلب والعقل والوحي ، وأنه هو المنقذ له من الضلال وليس التصوف. وبما أنه لم يقم بذلك النقد فقد أخطأ الفهم والاختيار في موقفه من التصوف الذي زاد في ضلاله ولم ينقذه منه.

وثانيا اتضح أيضا أن الرجل إن كان قد نقد طريق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية بنقد أخلط فيه الحق والباطل من جهة ، وأغفل طريق القرآن الكريم وأسقطه من بين طرق الهداية اليقين من جهة ثانية، ، فإنه في تبنيه للتصوف قد ترك النقد جانبا واختاره بالتمني والترجي ،والإعجاب بما يقوله الصوفية عن يقينهم وعواطفهم وأنوارهم المزعومة، فصدقهم ووقع في شباكهم . فكان ضحية اختياره للتصوف ، ودفع ثمن إغفاله للشرع،

[1] إن كل ما قلته قدمتُ الأدلة الدامغة والقطعية على صحته في كتاب: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف . وفي كتابنا: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. والكتابان منشوران إلكترونيا .

وضعف نقده لعلم الكلام والفلسفة، وتركه للنقد تماما عند تبنيه للطريق الصوفي .

وقد رأيناه كيف اشتد في نقد الفلاسفة وحكم عليهم بالكفر كلهم على اصنافهم الثلاثة: الدهريون، والطبائعيون، والإلهيون[1]. لكنه لم يفعل ذلك مع الصوفية رغم كثرة أخطائهم وانحرافاتهم ، وخرافاتهم وأباطيلهم التي هدموا بها الشرع والعقل والعلم !! . فالرجل لم يكن موضوعيا في نقده للتصوف ولا للصوفية، ولا التزم بالمنهج العلمي في البحث والاستدلال. فكان عليه أن ينقد الصوفية كما نقد غيرهم ، أو يرد على ناقديهم إن كان مؤيدا لهم ، أو يُقيم الأدلة والبراهين الدامغة على صحة طريقهم . لكن الرجل لم يفعل ذلك واكتفى بالمدح للتصوف والثناء عليه، وأحالنا على مجاهيل وتعلق بالظنون والمزاعم الجوفاء .

وثالثا إن قول الغزالي بأنه تأكد من صحة طريق التصوف بالذوق والمشاهدة القلبية هو قول لا يفسر لنا سبب اختياره للتصوف ، ولا يصلح أن يكون تعليلا له . لأنه كتب المنقذ بعد ممارسته للتصوف بأكثر من عشر سنوات وفيها ظهرت عليه آثار تطبيقه لعباداته ، فهو كتب مصنفه بلسان التصوف لا بحالة الشك والحيرة التي كان عليها وبها اختار التصوف، فهو قد تبناه قبل ظهور آثاره عليه. فكيف اقتنع به وما زال لم يُمارس عباداته ولا انعكست عليه آثارها ؟؟ !! . وبما أن الرجل هذا حاله، ولم يذكر لنا أي دليل يُثبت صحة اختياره للتصوف، ولا رد على الانتقادات الموجهة له فإن هذا يعني أن الغزالي تبنى التصوف وآمن به بطريقة غير علمية ولا صحيحة، وإنما كان معجبا ومُقلدا للصوفية فاستهوته مزاعمهم الجوفاء وصادفت هوى في قلبه فتمكن منه التصوف اختيارا أولا، ثم ممارسة ثانيا، ثم إهلاكا ثالثا . وهنا مات أبو حامد الغزالي الفقيه والمتكلم والفيلسوف، ووُلد أبو حامد الغزالي الصوفي بشخصية مغايرة تماما لشخصيته الأولى. إنه وُلد بأفكار وعقائد ومشاعر وسلوكيات جديدة قائمة على الدين الصوفي أساسا لا على دين الإسلام. وقد تجلت شخصيته الجديدة بتفاصيلها وخطوطها الكبرى في كتابه إحياء علوم الدين ، لكنها لا تظهر على حقيقتها إلا لمن يقرأ الكتاب قراءة نقدية تمحيصية فاحصة دقيقة بميزان الوحي الصحيح، والعقل الصريح، والعلم الصحيح . فيكتشف الغزالي على حقيقته: إنه صوفي يقول بوحدة الوجود، وداعية مُتعصب للتصوف ،ومتعدد

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 15 ، 16 .

الخطاب ممارس للتقية بمختلف أنواع التضليل والتحريف، وكثير الأوهام والأخطاء والانحرافات الشرعية والعلمية، ومُتعالٍ ومتعالم على مخالفيه من أهل العلم، ومع ذلك فهو حريص على أن يتستر بالإسلام[1].

ورابعا إنه تبين أن أبا حامد الغزالي في تبنيه للتصوف لم يلتزم فيه بشرطه في تعريف العلم اليقيني، بل نسيه ونقضه وتخطاه أصلا، وقرر يقينه بالتصوف بدون أي دليل صحيح. فهو قد عرف العلم اليقيني الذي يبحث عنه بقوله: ((أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنا يكون مقارناً لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً، فإني إذا علمت: أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك بسببه فيما علمته فلا. ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني))[2].

وأقول: إن الرجل لم يلتزم بذلك العلم اليقيني الذي يطلبه ونقضه عدة مرات. منها فقد ذكرنا أنه حكم على المعرفتين الحسية والعقلية بعدم الثقة، ثم بينا أنه أخطأ في ذلك، فالرجل لم يلتزم بشرطه، لأنه لو التزم به ما أخطأ في حكمه، وهو نفسه عاد ونقضه كما سبق أن بيناه في الفصل الثاني.

ومنها أنه حكم على علم الكلام والفلسفة بعدم قدرتهما على الوصول إلى اليقين ، وهذا حكم غير صحيح على إطلاقه، وبينا خطأ الرجل فيه إلى جانب الأخطاء الأخرى التي وقع فيها أثناء نقده للفلسفة. ، فلو كان قد اتخذ موقفه عن علم ويقين حسب شرطه ما أخطأ فيما ذكرناه.

ومنها أيضا أن الرجل اعترف أنه اتبع التصوف بعد مطالعته لكتب الصوفية، ولم يذكر أدلة ولا شواهد على صحة التصوف ولا على صواب

---

[1] أثبتُ ذلك بالأدلة الدامغة في كتابي: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 8 .

اختيـاره ، ولا علـى صـحة مزاعمـه . ثـم شـرع فـي ذكـر مـا أعجبـه فـي التصـوف وأهلـه والتنويـه بغاياتـه، وكـأن هـذه الصـفات صـحيحة بـذاتها ولا تحتـاج علـى أدلـة تُثبت صـحتها. فالرجل نقض شـرطه مـن أساسـه ، فتبنـى التصوف بلا علم ولا برهان من جهة، وآثارها وغاياته التـي مدحـه بهـا لا تظهر باختيار التصوف ، وإنما تظهر علـى صـاحبها بعد ممارسته لعباداتـه من جهة أخرى ، وقد طبقها الغزالـي أكثر من عشر سنوات . فهو اختـار التصوف بلا أدلة صحيحة، وتكلم عن غاياته قبل أن يمارسها وتظهر آثارها عليه. فكيف وصل إلى اليقين الصوفي قبل أن يختاره ؟؟، وكيف وصل إليـه قبل أن يُمارس عباداته التي مارسها الرجل مدة إحدى عشرة سنة ؟؟ . وكل هـذا يعنـي قطعـا أن الرجـل لـم يلتـزم بـذلك التعريـف أصـلا، وإنمـا اختـار التصوف بالتمني والرجاء والإعجاب وحسن الظن أكثر مما تبنـاه عـن علـم وفهم ووعي. والراجح أن الرجل وضـع ذلك التعريف للعلم اليقينـي بعـدما تصوف وبلغ غاياته فأصبح يتكلم عن نفسه بعد تصوفه لا عندما كان يبحث عن اليقين. لأنه لو ضعه قبل تصوفه والتـزم بـه حق الالتـزام مـا أخطـأ فـي نقده للمعرفتين الحسية والعقلية ، وطرق الطالبين ، وما أختار التصوف بـلا أدلة ولا شواهد صحيحة ، ولا أخطا في اختياره للتصوف الذي أغرقـه فـي الضلالات والخرافات والأخطاء والانحرافات الشرعية والعلمية.

وخامسـا فقد اتضـح أن أبـا حامـد الغزالـي أثنـاء مطالعتـه للتصـوف وبعد تبنيـه لـه استمر فـي إغفـال الشـرع كوسيلة للمعرفـة ومصـدر وطريـق إلـى اليقين من جهة، لكنه عاد إليه من جهة أخرى عندما تكلم النبوة . فعل ذلك ليس ليأخذ به ، أو لينقد بـه التصـوف وإنمـا ليتخـذه وسيلة ومظلـة يبـرر بهـا بعض عقائد التصـوف ، ويُثبت بها الإلهام الصوفي بـدعوى المكاشفة مقابـل النبــوة التــي تــتم بــالوحي. وحســب زعمــه أن الصــوفي يتلقــى العلــوم والمكاشفات بالإلهام الإلهي كـالنبي تمامـا الـذي يتلقـى العلـوم بـالوحي، وهـذا الأمـر صـرّح بـه فـي إحيـاء علـوم الـدين كمـا بينـاه سـابقا. فالرجـل أبعـد ديـن الإسلام من البداية، وظل مبعدا له حتى بعد تصوفه كدين ومنهج حياة ، لكنه استغله وتستر به لتقرير التصوف والانتصار له على حساب الإسلام والعقل والعلم .

وسادسـا وبمـا أن الغزالـي قـد أغفـل الشـرع ونقـد المعـرفتين الحسـية والعقلية واستبعدهما ونقد الكلام والفلسفة وحكم على العقل بقوله: ((ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منـه، علمت

أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات))[1]. فهل التصوف الذي اختاره الرجل قادر على تحقيق ما لم تحققه الحواس والفلسفة وعلم الكلام والعقل حسب زعمه ؟؟. باختصار شديد إن التصوف هو من أعجز وسائل المعرفة وأضعفها وأخطرها على الإنسان ، لأنه لا يقوم على ضوابط ومعطيات موضوعية من الشرع والعقل والعلم ، وآثاره الغالب عليها أنها هادمة للوحي والعلوم وبدائه العقول[2]، مما يعني أن التصوف لا يصلح طريقا إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولا طريقا إلى العلوم الصحيحة.

ومن جهة أخرى فهل الغزالي عندما نقد علم الكلام واستبعده من أن يكون طريقا إلى اليقين بقوله : ((هذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً))[3]. فهل محّص الطريق الصوفي ونقده بميزان الضروريات والبديهيات العقلية التي قال أنه لا يُسلم إلا بها ؟؟ . إنه قطعا لم يفعل ذلك ولا التزم به ، ولو طبقه ما تصوّف أصلا، ولهذا انتهى به اختياره وتصوفه إلى هدم الشرع والعلم وإنكار بدائه العقول وضرورياته عندما قرر وحدة الوجود، وادعى علم أسرار الكون في كتابه إحياء علوم الدين. إنه باع الوحي والعقل والعلم بالتصوف، وهنا تكمن مأساة الرجل !! .

وسابعا ربما يُقال : إن الغزالي الذي طلب العلم اليقيني القلبي ، ونقد المعرفتين الحسية والعقلية وطرق الطالبين للحق فهل يُعقل أنه يختار الطريق الصوفي دون نقد ولا تمحيص ولا شواهد صحيحة تُثبت له صحة تبنيه له ؟؟ !!.

وأقول: إن الرجل لم يذكر أي دليل يُثبت صحة الطريق الصوفي ولا رد على ناقديه ، ولا وزنه بميزان الشرع والعقل والعلم ، لكنه استدل على صوابه بطريقة غير صحيحة وفيها تغليط وتلبيس طبقها في خطوتين أساسيتين جعلتا التصوف صحيحا بالضرورة حسب ما خطط له مُسبقا. الأولى أنه حصر طريق الطالبين في أربعة دون خامس لها ، وزعم أن الحق لا يخرج منها بقوله : ((انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 27 .
[2] بينا ذلك بالأدلة الدامغة في : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف. و التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .
[3] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .

فرق: المتكلمون ... الباطنية ... الفلاسفة ... الصوفية ... فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته))[1].

والخطوة الثانية هو نقده للمعرفتين الحسية والعقلية والحكم عليهما بعدم الثقة، ونقده لطرق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية والحكم عليها بعدم قدرتها على بلوغ اليقين الذي كان الغزالي يطلبه . وبناءً على الخطوتين الأولى والثانية فإنه لم يبق إلا الطريق الصوفي، فهو صحيح بالضرورة ولا يحتاج إلى شواهد لإثبات صحته بحكم انحصار الحق في الطرق الأربعة، وعدم صحة الطرق الثلاثة التي نقدها الغزالي.

بتلك الطريقة احتج الغزالي للتصوف وفرض صحته فرضا على القراء. ولاشك أنها طريقة فيها تغليط وتلاعب واحتيال ، وليست من المنهج العلمي الصحيح في شيء، وإنما هي من السفسطة وما قررته غير صحيح قطعا. بدليل الشواهد الآتية: أولها ليس صحيحا أن وسائل المعرفة منحصرة في الحواس ، والعقل والقلب ، وإنما توجد المعرفة الشرعية، وهي وسيلة يقينية من وسائل المعرفة، لكن الغزالي أغفلها ، واكتفى بنقد المعرفتين الحسية والعقلية وانتصر للمعرفة الصوفية .

والشاهد الثاني ليس صحيحا أن طرق الطالبين محصورة في الأربعة التي ذكرها ، لأنه يوجد الطريق الشرعي وقد أغفله الغزالي مع أنه طريق صحيح موصل إلى اليقين قطعا إذا صحت نية الطالب واتبع المنهج الصحيح في طلب اليقين. وأغفل معه أيضا طريق أهل الحديث كما سبق أن بيناه.

والشاهد الثالث ليس صحيحا أن علم الكلام والفلسفة لا يُمكنهما أن يكونا طريقا إلى اليقين ، فقد بينا أنه مع ما فيهما من أخطاء ونقائص فإنهما قد يوصلان إلى اليقين إذا أُستخدما بطريقة صحيحة. فالغزالي أخطأ في إبعادهما نهائيا، لكنه أصاب في نقده لطريق الشيعة الإمامية ، فهو لا يُمكن أن يكون طريقا لليقين لأنه لا شرعية له من دين الإسلام ومخالف وهادم له أيضا كما بيناه سابقا.

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 12 .

وبذلك يتبين أن الشرع طريق موصل إلى اليقين، وكذلك طريق أصحاب الحديث ، وأن كلا من علم الكلام يُمكن أن يوصلان إلى اليقين أيضا. وأما التصوف فلا يُمكن أن يكون كذلك لمجرد أنه هو الطريق الأخير كما فعل الغزالي، وإنما بنقده وإظهار صدقه وصحته وموافقته للوحي والعقل والعلم ، وبما أن هذا غير مُمكن لأن التصوف مخالف للشرع وهادم للوحي والعقل والعلم[1] ، فإنه لا يُمكن أن يكون طريقا إلى اليقين، ولن يستطيع الغزالي ولا غيره إثبات صحته.

علما بأن كلا من طريق الإمامة الشيعية والتصوف مع أنهما غير صحيحين ولا شرعية لهما ،ولا يقين صحيح فيهما، فإنهما من ناحية أخرى يُمكن أن يوصلان إلى اليقين ليس بالأخذ بهما ، وإنما بنقدهما النقد العلمي الصحيح وإظهار بطلانهما أولا، مما يُؤدي ثانيا إلى إثبات أن الطريق الصحيح المؤدي إلى اليقين الحقيقي لا يكون إلا بإتباع الوحي، والعقل ، والعلم ،قال تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)(الحج: 8)) .

وختاما لهذا الفصل- الرابع - يُستنتج منه أن تبني الغزالي للطريق الصوفي كان اختيارا غير صحيح ، لأنه لم يقدم أدلة صحيحة على سلامته وصوابه ، ولا رد على ناقديه ، ولا محصه بمنهج موضوعي قائم على الشرع والعقل والعلم . فالرجل أخطأ في اختياره للتصوف كما أخطأ في نقده لعلم الكلام والفلسفة وإبعاده للطريق الشرعي ، فسد بذلك على نفسه طريق الصراط المستقيم ، ودفع ضريبة انحرافه عنه، وحُرم اليقين الصحيح الذي تمناه .

[1] بينا ذلك بشعرات الأدلة الدامغة والقطعية في : نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف . وفي كتاب: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

الفصل الخامس

نقد مواقف الغزالي من الإسلام أثناء تجربته وأسباب فشلها

أولا: نقد الغزالي في إغفاله للشرع عند نقده للمعرفة وطرق الطالبين

ثانيا: من مميزات تجربة الغزالي وأسباب فشلها

نقد مواقف الغزالي من الإسلام أثناء تجربته وأسباب فشلها

تقديم:

أشرنا سابقا إلى أن أبا حامد الغزالي -أثناء شكه وحيرته- أغفل دين الإسلام ، فلم يذكره من بين وسائل المعرفة، ولا من طرق النجاة ومصادر الهداية . وفِعله هذا من أغرب تصرفات الغزالي وأخطرها أثناء تجربته مع الشك واليقين. فما تأثير ذلك عليه ؟، وهل يُعقل أن مسلما حائرا مريضا يغفل عن العلاج الشرعي لعلته ؟؟. وما هي أسباب إغفاله للإسلام وإسقاطه من حسابه كعلاج لحالته ؟؟. وما تأثير إغفاله للشرع على تجربته مع الشك واليقين ؟؟.

<u>أولا: نقد الغزالي في إغفاله للشرع عند نقده للمعرفة وطرق الطالبين:</u>

يُمكن توجيه عدة انتقادات وملاحظات لأبي حامد الغزالي في إغفاله للشرع أثناء تجربته مع الشك والحيرة واليقين تتعلق بها مُنطلقا ومسلكا وآثارا. منها أولا إن الغزالي عندما بدأ كتابه المنقذ من الضلال أشار إلى اختلاف الناس بأديانهم ومللهم وفرقهم واستشهد على ذلك بآية وحديث نبوي، فقال : ((اعلموا - أحسن الله تعالى إرشادكم، وألان للحق قيادكم - أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة بالفرق، وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي، " كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"- المؤمنون: 53- . وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه، وهوا لصادق المصدوق حيث قال: " ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة[1]، الناجية منها واحدة))[2] .

وكلامه هذا تضمن تناقضا واضحا ومحيرا ، إن الرجل يستشهد بالقرآن الكريم على أنه كلام الله، لكن هل يُعقل أن إنسانا أمامه كلام الله ويبحث عن الحق والعلاج من خارجه ؟؟ !! . وهل يُعقل أن يستشهد بحديث نبوي لسيد المرسلين المبعوث من الله تعالى رحمة العالمين ثم يُترك منهجه ويبحث عن اليقين من خارجه ؟؟ !!. وهل يُعقل أن يترك سبيل الله ويغفله ، ويذكر

---

[1] الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج 1 ص: 402 ، رقم: 203 .

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ، حققه سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الأسكندرية، ص: 6 – 7.

السُبل الأخرى ويتبع بعضها ؟؟ !! أليس هذا مخالفة صريحة لقوله تعالى: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام: 153)) ؟؟.

لاشك أن ذلك التصرف لا يصح،ولا يُعقل ، ولا يُقبل من الرجل، وكان من الواجب عليه شرعا وعقلا أن يذكر الشرع طريقا إلى المعرفة والهداية واليقين كأول سبيل إلى ذلك من البداية . وحتى إذا فرضنا جدلا أنه لم يكن يعتقد بأن الإسلام دين الله تعالى وطريقه المستقيم فكان عليه أن يذكره ضمن طرق الطالبين التي ذكرها ولا يستثنيه من بينها .

وبناءً على ذلك فإن إغفال الغزالي للشرع كطريق إلى المعرفة والهداية لا يصح ولا يُقبل منه شرعا ولا عقلا لثلاثة أمور أساسية : أولها إن الشرع هو طريق الله المستقيم ونوره المبين وحبله المتين ، من انحرف عنه فقد ضل ضلالا مبينا واتبع غير سبيل الله، قال سبحانه: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام: 153)) .

والأمر الثاني مفاده أنه ليس للغزالي أي مبرر صحيح في إغفاله للشرع كطريق للمعرفة والهداية، فإن لم يكن يعتقد أنه طريق الله فكان عليه أن يذكره على أنه طريق من ضمن الطرق التي تدعي أنها توصل إلى الحق واليقين .

والأمر الثالث مضمونه أن الغزالي ذكر ثلاثة طرق منتسبة إلى الإسلام مع أنها لا تمثله ، وإنما تمثل نفسها وأصولها أساسا، وهي: طريق المتكلمين، وطريق الصوفية، وطريق الشيعة الإمامية. فلا يصح ذكر هذه الطوائف المنتسبة إلى الإسلام ، ولا يُذكر الإسلام لوحده وبذاته بأنه يُمثل الطريق الصحيح وصراط الله المستقيم المعبر عن نفسه بنفسه. فعجبا من الغزالي كيف كان يُفكر ؟؟ وكيف كان ينظر إلى دين الله تعالى ؟؟.

علما بأن كل المذاهب المنتسبة إلى الإسلام بحق وبغير حق هي في الأساس تمثل أصولها وفروعها وغاياتها،وقد تتفق مع الإسلام وقد تخالفه، وأما الإسلام فلا يُمثله إلا القرآن الكريم والسنة الصحيحة الموافقة له. وهو الحَكَم على تلك المذاهب وليس العكس، وهو الذي يُمثل الإسلام وليست هي

التي تُمثله. لذا فإن إغفال الغزالي لدين الإسلام كطريق للمعرفة والهداية ، وأنه صراط الله المستقيم وحبله المتين يُمثل جريمة في حق الشرع والعقل والعلم بل وفي حق الغزالي نفسه.

ويُلحق بذلك أيضا أنه لا يحق للغزالي أن يذكر طريق المتكلمين-الأشاعرة والماتُريدية - والصوفية والشيعة الإمامية، ويُغفل طريق أهل الحديث ، وهم أصحاب مدرسة لها منهجها وعلماؤها ومصنفاتها، جمعت بين الوحي والعقل، وأقرب الفِرق إلى الشرع وأكثرها التزاما به. فكان من الواجب على الرجل أن يذكر طريق أهل الحديث من بين طرق الطالبين ولا يغفله ولا يسقطه من حسابه.

وثانيا إنه يتبين من تدبر تجربة الغزالي مع الشك والحيرة واليقين أنه كان بعيدا عن دين الله تعالى ، ولا كان متمسكا به ولا مستضيئا بنوره أثناء حيرته، وإلا ما أغفله من وسائل المعرفة وطرق الطالبين للهداية واليقين. بل لو كان متمسكا ومستضيئا به ما التفت إلى غيره من السبل ، وما سمح لنفسه أن يذكر معه تلك الطرق ، ولا أن يختار واحدا منها دونه. فأين كان من قوله سبحانه: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام: 153)) ؟؟. وهل يُعقل أن عالما مسلما يتعرض لأزمة نفسية أو فكرية يغفل فيها دين الله تعالى ويُبعده من طريقه على أنه الصراط المستقيم ؟؟ ومن غرائب الغزالي أنه ذكر في المنقذ أن الله تعالى هداه وسدده ورزقه بنور الهداية ، لكنه نسي أو تناسى أن ذلك لا يتم دون إتباع دينه قلبا وقالبا ، وانه لا يصح ولا يحق لمسلم أن يطلب الهداية والنور خارج الوحي الإلهي. فماذا يعني ذلك ؟؟، إنه يعني أن الرجل كان بعيدا عن الصراط المستقيم ومُلبسا عليه.

وثالثا إن أخطر ما تبين من نقدنا لتجربة الشك واليقين عند الغزالي أن نظرته لدين الإسلام أثناء شكه وبعد تصوفه أصبحت نظرة " علمانية " انتصارا للتصوف ، بدليل الشواهد الآتية : منها أنه أغفل الشرع وأبعده وقزمه وأقصاه عندما تكلم عن وسائل المعرفة وطرق الطالبين للهداية واليقين ، ولم يستخدمه في نقده لها إلا قليلا حسب مصلحته . وعندما تبنى التصوف طريقا إلى اليقين لم يزنه بميزان الإسلام، وإنما أخضع الإسلام له. ومنها أنه زعم أن الشرع لم يتعرض لعلم الحساب والفلك والمنطقيات إثباتا ولا نفيا ، وتكلم عن النبوة ليس لتكون له طريقا إلى الالتزام بالشرع،

وإنما ليُبرر بها الكشف والإلهام الصوفيين تقريرا لنبوة التصوف. هذه الشواهد تدل على أن موقف الغزالي من دين الإسلام هو موقف نفعي اقصائي علماني تبناه عن قصد انتصارا للتصوف، لأن التصوف في حقيقته هو دين علماني مُتستر بالإسلام[1].

ورابعا إن من تناقضات الغزالي في إغفاله للشرع وإقصائه من طرق المعرفة والهداية واليقين أنه عندما حصر الطرق في أربعة وبدأ في نقد مسلك علم الكلام وأهله قال عن الإسلام : ((فقد ألقى الله تعالى، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق. على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم))[2].وهذا يتناقض تماما مع موقفه الإقصائي للإسلام، لأن من يعتقد بما قاله الغزالي عن الإسلام حقا وصدقا وإخلاصا يجب عليه أن يتوقف فورا عن البحث عن الهداية واليقين عند المتكلمين والفلاسفة ، والصوفية والشيعة الإمامية، ويتجه سريعا بصدق وإخلاص إلى دين الله تعالى ليُحييه ويرزقه الإيمان واليقين، قال سبحانه: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(الأنفال: 24))، و((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)(الأنفال: 29))، و((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(الحديد: 28)). لكن الرجل قال ذلك وجعله وراء ظهره وواصل كلامه ونقده لطريق المتكلمين طلبا لليقين الذي يبحث عنه، ونسي أو تناسى تناقضه ،وأنه حرام عليه أن يترك الشرع جانبا ويبحث عن اليقين عند المتكلمين والفلاسفة ،والصوفية والشيعة الإمامية.وفعله هذا لا يصح شرعا ولا عقلا، لأن الله تعالى يقول: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام : 153)). ، و((ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(الجاثية: 18))،))، و((فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)(النساء : 59)).

ومع ذلك التناقض فإن أمر هذا الرجل لغريب وعجيب في موقفه من دين الإسلام !!، فماذا يقصد من قوله : ((فقد ألقى الله تعالى، إلى عباده

[1] أثبت ذلك بأدلة كثيرة في كتابنا: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .

على لسان رسوله عقيدة هي الحق. على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم))[1] ؟؟ !!. فهل هو هنا يحكي لنا ما يعتقد المسلمون في الإسلام لا ما يعتقده هو فيه ؟؟ . وهل قوله هذا يهم المسلمين وهو غير معني به ؟؟. وهل هو هنا يُذكّر المسلمين بدينهم ولا يُذكّر نفسه به ؟؟. وهل هنا يشرح ما يقوله الإسلام وهو غير معني ب\لك؟؟. وبما أنه ذكر أن الإسلام فيه سعادة الدنيا والآخرة، فلماذا يبحث عن اليقين من خارجه ؟؟، ولماذا أغفل الإسلام وأبعده من طرق المعرفة واليقين بما أنه سبيل سعادة الدارين ؟؟ !!.

وخامسا إن الغزالي حكى عن نفسه بأنه تخلص من التقليد وأنه يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال[2]. لكن الحقيقة أنه لم يلتزم بمنهجه هذا في كل مواقفه أثناء حيرته وبحثه عن اليقين. بل إنه تركه وراء ظهره عندما تبنى التصوف، فقد حكى عن نفسه أنه قرأ مصنفات التصوف وأُعجب به وبأهله ، من دون أن يذكر أنه نقده ومحصه بالشرع والعقل والعلم، ولا أقام شواهد صحيحة تُثبت صواب موقفه منه. مما يعني أن الرجل كان مقلدا للصوفية ومحسنا الظن فيهم ، استهووه بأقوالهم المتعلقة بخرافة الكشف والأنوار والفناء في الله . ولو كان ناقدا ومُمحصا وحرا في تفكيره عندما اطلع على التصوف ما تصوّف ولا انتصر للتصوف ، ولا فضّله على غيره من الطرق التي نقدها.

وأخيرا – سادسا- إن من تناقضات أبي حامد الغزالي أنه بعدما أغفل الشرع وأبعده من طريقه ، ولم يزن به نقده للمعرفة وطرق الطالبين لليقين ،ولا محّص به التصوف عندما تبناه ، وقرر أمورا كثيرة مخالفة للشرع ، عاد وتكلم عن النبوة واضطرار الخلق إليها !!. وهذا تناقص صريح صارخ ، فلماذا أغفلها وهدمها بتصوفه ثم يعود يتكلم عنها ؟؟. ولماذا لم يتكلم عن النبوة في البداية ويُؤكد على وجوب اتباعها واضطرار الخلق إليها ؟؟، وهذا يعني أنه هو شخصيا كان من الواجب عليه أن يتبعها ، فلا يُغفلها ولا يتبنى التصوف طريقا له إلى اليقين . فهل هو لم يكن مضطرا إليها ؟؟ ولماذا لم يكن مضطرا إليها ؟؟. أليس هو من المسلمين وينتسب إليهم ؟؟. ليس لهذه التساؤلات إجابات صحيحة إلا أن يكون الغزالي تكلم عن النبوة بعد تصوفه ليس ليرجع إلى دين الله تعالى ، وإنما ليتخذ عقيدة

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .
[2] منها مثلا: الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 26

النبوة طريقا إلى تقرير النبوة الصوفية القائمة على الكشف والإلهام الصوفيين كما سبق أن بيناه .

كانت تلك هي طائفة من الانتقادات والملاحظات التي وجهناها لموقف أبي حامد الغزالي من إغفاله للشرع وإبعاده من أن يكون طريقا إلى المعرفة والهداية واليقين. فلماذا اتخذ هذا الموقف مع صراط الله المستقيم وحبله المتين ؟؟ !!.إن الغزالي كما أنه لم يقل صراحة بأنه أغفل الشرع من طريقه، مع أنه أغفله فعلا، فهو أيضا لم يقل لماذا أغفله . لكن يُمكن إرجاع ذلك إلى سببين أسياسيين ، هما: الغفلة عن التزكية الشرعية، وضعف إيمانه بالإسلام أثناء أزمته، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

فبالنسبة لغفلته عن التزكية الشرعية ، فالأمر واضح بداهة، فعندما كان الغزالي قبل أزمته غارقا في قضايا الفقه والخلاف ومشاغل التدريس لم يكن له نصيب كبير ولا كافٍ من التزكية الروحية الشرعية، وإلا ما حدثت له تلك الأزمة بحثا عن اليقين. فلو كان يتمتع بالتزكية الإيمانية ما أحس بالفراغ الروحي الذي أمرضه وأدخله في تجربة الشك والحيرة طلبا لليقين القلبي. فلا ريب أن الغزالي لم يكن من الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ((وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)(الحجرات: 7))، و((أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(الأنعام : 122)). فلو كان من هؤلاء ما حدثت له تلك الأزمة ، ولا هام على وجهه طلبا لليقين القلبي . فالرجل كان فاقدا للتزكية الشرعية تقريبا وغافلا عنها أيضا، ومن غفل عن شيء لا يطلبه . فلما أحس الغزالي بالخواء الإيماني، والفراغ الروحي، وفقدان الاطمئنان اليقيني لم تكن التزكية الشرعية في قبله ولا في باله فخرج طالبا العلاج من خارجها ، فوجد التصوف أقرب الطرق إليه بحكم أنه هو أكثر الاتجاهات اهتماما بالجانب الوجداني والقلبي من الإنسان، فتبناه وتفرغ لعباداته. فأمرضه التصوف ولم يُشفه، وزاده رهقا وانحرافا عن الشرع.

فالرجل كان غافلا عن التزكية الشرعية نظريا وعملية. ولهذا عندما أحس بالفراغ الروحي وطلب اليقين القلبي لم يتذكر التزكية الشرعية لأنه كان غافلا وبعيدا عنها ومحروما منها فانتقل مباشرة إلى التصوف الذي

استهواه بمزاعمه الطويلة والعريضة، فانتقل من غفلة إلى غفلة أخطر من الأولى.

وأما ضعف إيمان الغزالي بالإسلام أثناء أزمته، فيتضح من كلام له عندما كان ينقد مسلك المتكلمين، فكان مما قاله : ((قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً))[1].

أقول: موضع الشاهد هنا هو قوله : ((أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ... وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً))[2]. فالغزالي انتقد المتكلمين في منهجهم فكان مما انتقدهم فيه أنهم اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم اضطرارا ، إما لتقليد ، أو إجماع ، أو لمجرد القبول من القرآن والأخبار . وهذه الطريقة بالنسبة للرجل وحالته التي كان عليها لا تتفق معه لأنه كان مريضا ولا يُسلم إلا بالضروريات البديهية حسب ما ذكره عن نفسه .ونقدنا له من جانبين: الأول لا يصح شرعا ولا عقلا التسوية بين القرآن والأخبار، لأن القرآن كلام الله كله حق وعلم ، والأخبار أحوال هي روايات الناس والغالب عليها أنها أخبار ظنية والكثير منها غير صحيح . ونقده للمتكلمين بأنهم سلموا بتلك المقدمات لمجرد القبول من القرآن لا يصح . لأن الصواب هو أن القرآن الكريم كله حق، فإن كان الخصم استدل به بطريقة صحيحة يجب قبوله ، وإن حرفه يجب الرد عليه وتبيان انحرافه ومخالفته للشرع.

وأما الجانب الثاني فيتعلق بموقف الغزالي من الاستدلال بالقرآن والحالة التي كان عليها . فيبدو من كلامه أنه كان قد فقد أو ضعفت ثقته كثيرا في القرآن وإيمانه به، عندما كان في أزمته ،ولهذا انتقد هؤلاء في

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 13 .

قبولهم لما جاء في القرآن لمجرد أنه قرآن دون أدلة ومقدمات عقلية تثبت صحة ما قاله القرآن . فحالته التي كان عليها طالبته بالبراهين اليقينية حسب كلامه . ولهذا وجدنا الرجل استبعد القرآن الكريم من وسائل المعرفة وطرق الهداية واليقين.

ومما يُؤيد ذلك أيضا أن الرجل لو كانت ثقته بالقرآن الكريم قوية، وإيمانه به راسخا وصحيحا ما كان يحدث له ما حدث أثناء أزمته. لأن الإيمان الصحيح والقوي بالقرآن الكريم كان سيجنبه المتاهات والبحث عن الهداية واليقين من خارجه، وإنما كان الأمر يتطلب منه الصبر والمجاهدة حتى تزول الشدة ، لأنها تندرج ضمن سنة الله في الاختبار والتمحيص، قال تعالى: ((أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)(العنكبوت: 2)). كما أن إيمانه بالقرآن سيخفف عليه الأزمة، ويسهل عليه الطريق وينوره بالأدلة الشرعية الكثيرة والمتنوعة، ولا يخرج عن الصراط المستقيم ولا يصل إلى سُبل الشيطان التي نهانا الله عنها ، قال سبحانه: ((وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام: 153)).

ولا شك أن موقف الغزالي من الاستدلال بالقرآن الكريم هو موقف غير صحيح. لأنه كان عليه ومن الواجب أن يسترد ثقته بالقرآن ويتخلص من نظرته إليه على أنه مجرد خطاب ومواعظ ،ويفتقد إلى اليقين والقطعيات والأدلة العقلية والعلمية الصحيحة. فلو تدبر في القرآن الكريم بإخلاص وفهم وتدبر عميقين وصحيحين لاسترجع ثقته فيه ، ولو رجع إلى أدلة القرآن العقلية والتاريخية والفطرية والقلبية والعلمية لوجدها أدلة دامغة لا يُمكن دحضها ، ولأستطاع أن يختصر الطريق ويتجنب المزالق التي وقع فيها بعد تصوفه والتي لم يتخلص منها إلى أن مات[1]. فالرجل أخطأ الطريق من البداية ، ولهذا أغفل الشرع وأبعده من طرق المعرفة والهداية واليقين.

وانطلاقا من السببين السابقين اللذين جعلا الغزالي يغفل الشرع ويبعده من طريقه، فهل موقفه هذا صحيح وله ما يُبرره ؟؟. أولا إنه كان على الغزالي أن لا يترك نفسه حتى يصل إلى إغفال الإسلام وإبعاده من طريقه في طلبه لليقين. فكان عليه أن يسعى بكل ما يستطيع بإخلاص وجد وثقة في

---

[1] عن ذلك أنظر كتابنا : التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين ، والكتاب منشور إلكترونيا .

الله تعالى ليسترد ثقته وإيمانه بدين الإسلام ، وليحرص على طلب التزكية الشرعية ولا يمد عينيه إلى التصوف ولا إلى غيره من المذاهب.

وثانيا بما أن الرجل لم يقم بتلك الخطوة واستدرجته نفسه والشيطان إلى أن أغفل الشرع وأبعده من طريقه ، فكان بين تصرفين، هما: إغفال الإسلام وإبعاده من أن يكون من بين طرق المعرفة واليقين مع عدم التصريح بذلك. وإما أن يذكره من بين تلك الطرق ويعلق عليه ثم يستبعده كما استبعد طريق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية. فاختار التصرف الأول لأنه هو الأسلم والأضمن والأصلح له. لأنه لو اختار التصرف الثاني سيكشف عن موقفه الحقيقي من الشرع علانية، وهذا سيجلب عليه سخط المسلمين، ويصطدم معهم ويتصدون له ويردون عليه ؛ لكن الرجل لم يكن مستعدا للأخذ بالتصرف الثاني ، فاختار الأول وجنب نفسه ما كان سيجلبه عليه التصرف الثاني من مشاكل ومحن .

وإنهاءً لهذا المبحث أُشير هنا إلى أن ما ذكرناه عن سبب إغفال الغزالي للشرع وإبعاده من طريقه هو تعليل لموقفه وليس تبريرا له . فهو يبقى مسؤولا عن تصرّفه مع الشرع وعن كل ما ترتب عنه، ولا يُرفع عنه اللوم. فكان من الواجب عليه أن يُصحح أخطاءه ويتدارك نقائصه ، وينقذ نفسه مما وقع فيه.

ثانيا: من مميزات تجربة الغزالي وأسباب فشلها

أظهر نقدنا لتجربة أبي حامد الغزالي مع الشك والحيرة طلبا لليقين أنها تجربة تميزت بمميزات كثيرة معظمها سلبية على صاحبها فكانت شواهد على فشل تجربة الرجل في رحلته من الشك والحيرة إلى التصوف.

منها أولا تبين أن الأزمة التي ألمت بالغزالي لم تكن في أساسها أزمة فكرية، وإنما كانت وجدانية قلبية تبحث عن اليقين القلبي الذوقي. ولهذا لم نجد للرجل قضايا وإشكالات فكرية شغلته وأرقته بحثاً لها عن حلول، ولا كانت سببا فيما حدث له. والدليل على ذلك أيضا أنه أثناء أزمته قام بنقد المعرفتين الحسية والعقلية وطرق الطالبين لليقين. فلم يكن يبحث عن إجابات لقضايا وإشكالات فكرية، وإنما قام بذلك النقد بحثا عن اليقين القلبي بعدما كان قد تبحر في الفقه والخلاف والجدل وعلم الكلام والفلسفة.وهذا الذي قاله الغزالي صراحة عندما ذكر بأنه كان يبحث عن اليقين القلبي الذوقي فوجده بعد البحث في التصوف حسب زعمه .

ومنها ثانيا إن تجربة الغزالي وآثارها عليه تميزت بالانحراف عن الصواب من طرفيها ووسطها . إنه ضل الطريق من الخطوة الأولى عندما أغفل الشرع وأبعده من طريقه. ثم ازداد انحرافا وبعدا عن الصراط المستقيم عندما أخطأ في نقده للمعرفتين الحسية والعقلية، وفي نقده لعلم الكلام والفلسفة، فسد عليه الطرق التي كان من الممكن أن تأخذ بيده وترده إلى طريق الوحي الصحيح والعقل الصريح والعلم الصحيح. ثم بعد ذلك ارتمى في أحضان التصوف واستسلم له من دون نقد ولا تمحيص ولا مقاومة له ، فضل وأضل وازداد مرضه ولم يُشف ،وهنا بلغت التجربة نهايتها، فكانت مُثقلة بالأخطاء والانحرافات: مُنطلقا وممارسة وآثارا.

وثالثا إن من مميزاتها أيضا أن الرجل مر بأزمتين أثناء تجربته ككل ، الأولى كانت أزمة اختيار بين التصوف والطرق الأخرى. فتصرّف معها بإغفال الشرع وإبعاده، وبنقد المعرفتين الحسية والعقلية والحكم عليهما بعدم الثقة، وبنقد طريق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية والحكم عليها بعدم الصلاحية، ثم تبنى التصوف طريقا له دون نقد ولا محيص .

وأما الأزمة الثانية فكانت أزمة صراع نفسي بين جواذب الدنيا التي كان يعيشها وبين جواذب التصوف ومتطلباته ليُطبق الطريق الصوفي، ثم انتهت باختيار الرجل للعزلة الصوفية التي دامت إحدى عشرة سنة وفيها بلغ الرجل غايات التصوف التي كبلته بأغلالها وقطعت الطريق أمامه من أن يعود إلى الطريق المستقيم.

ورابعا إن من مميزات تجربة الغزالي أن من الراجح أنه تصرّف في تجربته عندما دونها في المنقذ من الضلال، فأدخل فيها ما ليس منها خطأً أو عمدا ، أو هما معا انتصارا للتصوف وتبريرا لمواقفه منه ، وإكمالا لجوانب رآها ناقصة في قصته. بدليل الشواهد الآتية:

أولها مفاده بما أنه تبين أن سبب أزمة الغزالي لم تكن فكرية وإنما كانت قلبية وجدانية، فإن نقده للمعرفتين الحسية والعقلية وعلم الكلام والفلسفة والإمامة الشيعة لا مبرر لإدخاله في تجربته من جهة، ونقده السريع والسطحي والناقص والمملوء بالأخطاء لتلك الطرق هو شاهد قوي على أنه أُقحمه في القصة من جهة أخرى، لأن من يكون يُعاني أزمة فكرية

تتعلق بتلك الطرق لا ينقدها بتلك الكيفية، وإنما يُمحصها ويغربلها بحزم وقوة وحرص طلبا للحقيقة.

والشاهد الثاني: إن قول الغزالي بأنه كان يطلب العلم اليقيني القلبي، وعرفه بقوله: ((فقلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنا يكون مقارناً لليقين ...))[1]. هو شاهد على أنه تعريف صوفي يتضمن القول بالكشف وضعه بعد تصوفه ليرفض به معرفة الحواس والعقل وطرق الطالبين التي نقدها. بدليل أنه حكم على طرق المعرفة واليقين بعدم الثقة والصلاحية بالظن وأخطأ في معظم نقده لها ، فأين العلم اليقيني الذي اعتمد عليه. ومن جهة أخرى فقد تبنى التصوف دون أي دليل صحيح، ولا أقام شواهد على صواب الطريق الصوفي. فكيف عرف أنه صحيح وطريق إلى اليقين من دون أدلة، وقبل أن يُمارس عباداته التي لا تظهر آثارها إلا بعد ممارستها ؟؟.

علما بأن العلم اليقيني لا يحتاج إلى الكشف الصوفي المزعوم ، وإنما هو أنواع وحسب طبيعة ظواهره. فلاشك أنه يوجد علم يقيني يُعرف بالحواس ، وآخر بالإحساس الداخلي ، و آخر يُدرك بالبحث والتأكد من الموضوع بالمعاينة أو بالآثار، أو بالعقل ، أو بالشرع . وكم من حقائق يقينية لا تُعرف بكشف، ولا بذوق، ولا يُمكن معرفتها بذلك، وإنما تُعرف بالآثار والتجارب كما هو حال كثير من ظواهر العلم الحديث: منها ظواهر تُعرف بالآثار والمس دون معرفة حقيقتها كالكهرباء، وأخرى بالآثار والتجربة دون لمس كالجاذبية، والذرة ، وأخرى بالآثار فقط كالتاريخ الطبيعي والبشري للأرض وحوادثها. وكذلك معرفة الله تعالى بمخلوقاته ، والقرآن قد أمرنا بذلك ونص على هذه الظواهر. فهي توصل إلى اليقين من دون ذلك الكشف المزعوم الذي لم يجن منه الغزالي إلا الأوهام والخرافات والمزاعم الجوفاء كما بيناه في نقدنا لإحياء علوم الدين . فالرجل عرّف العلم تعريفا صوفيا لا علميا لغاية خطط لها سلفا بحكم أنه كتب المنقذ بعد تصوفه بمدة تزيد عن عشر سنوات، وقد نقض تعريفه بنفسه عندما اختار التصوف بلا نقد ولا يقين .

---
[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 .

والشاهد الثالث : إن الغزالي لم يحدد أمرا واضحا ولا قضية معينة كانت سببا في بداية أزمته، ولا حدد سنة لبدايتها. فمرة يذكر عن نفسه أنه كان مهتما وشغوفا بطلب العلم وقراءة كتب الفرق في الفترة الممتدة من قبل العشرين من عمره إلى أن تجاوز الخمسين سنة ، فذكر أنه طالع كتب المتكلمين و الفلاسفة والشيعة والصوفية دون أن يحد تاريخا لبداية ذلك[1]. ومرة يرجع اهتمامه وانشغاله بالعلم وقضايا الفكر والاعتقاد إلى مرحلة صباه وما بعدها فقال: ((((وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي، وحتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت: صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصُر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام. وسمعت الحديث المروي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: " كل مولودٍ يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يُهودانهِ، وينُصرانهِ، ويُمجِّسَانِهِ " فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنا يكون مقارناً لليقين ... ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني ثم فتشت عن علومي، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة، إلا في الحسيات، والضروريات، فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه، ولا غائلة له. فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات...))[2].

---

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 7 وما بعدها.

[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 9 .

ومرة أخرى أشار إلى أنه تفرغ لقراءة كتب المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية والصوفية في الأربع سنوات الأخيرة قبل سنة 488 هـ عندما كان في بغداد، وفيها حدثت أزمته التي دامت نحو شهرين[1]، ثم أزمته الثانية بعد اختياره للتصوف والتي استمرت نحو 6 أشهر[2].

واضح من كل ذلك أن الغزالي اختصر قصته وأدمجها في بعضها بلا بداية محددة ولا فصل فيها بين صباه وشبابه ، بل وأدمج مرحلة الاهتمام بتحصيل العلم والإطلاع على مقالات الفرق مع مرحلة شكه وحيرته التي أوصلته إلى التصوف. فقصة الرجل فيها خلط وضبابية ، وقفز على المراحل ، وعدم تحديد واضح وثابت لشكه وحيرته. فلا نعرف له أمرا واضحا ولا قضية أثارته وأرقته كانت سببا فيما حدث له. فمرة يوحي إليك أن حياته كلها أزمات منذ صباه حتى الخمسين من عمره. ومرة يجعلك تعتقد أن أزمته بدأت قبيل العشرين من عمره . ومرة يذكر ما يشير إلى أن أزمته بدأت قبل نحو أربع سنوات من عام 488 هـ. فهذا أمر غريب جدا ويثير شكوكا حول الرجل وتجربته، فلماذا هذا الخلط كله ؟؟. ولماذا لم يفصل بين مراحل تطوره الفكري، ويُفرق بين مرحلة التحصيل العلمي، وبين مرحلة شكه وحيرته ؟؟. فإن تداخلت المرحلتان عليه أن يُبين ذلك بدقة ووضوح .

والشاهد الأخير- الرابع- : إن مما يدل على أن الغزالي أدخل في أزمته ما ليس منها أنه بعدما أنهى نقده للحواس والبديهيات العقلية وحكم عليها بعدم الثقة قال بأنه أُصيب بداء عضال دام نحو شهرين، ثم شُفي منه بنور قُذف في قلبه !! . وهذا أمر مُستبعد جدا كما سبق أن بيناه، لأن المرض يكون نتيجة أزمة وفشل في النقد، ولا يكون نتيجة نجاح في النقد والحكم. كما أن الداء الذي يدوم نحو شهرين لا يصح وصفه بأنه داء عضال !! .

وأما إذا قيل: هل يُعقل ويصح شرعا وعقلا أن يقدم أبو حامد الغزالي على إدخال في قصته مع الشك والحيرة ما ليس منها ؟؟ !! .

[1] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 12 .
[2] الغزالي: المنقذ من الضلال ،ص: 37 .

وأقول: بيّنا أن من الراجح أن الغزالي أدخل في قصته ما ليس منها، وهذا قد يكون حدث خطأ ، أو عمدا ، أو هما معا. لكن تعمد الغزالي بفعل ذلك أمر وارد جدا، وليس مستحيلا ولا مُستبعدا . لأن الغزالي قبل تصوفه ليس هو الغزالي بعد تصوفه، فقد أصبح إنسانا آخر، إنه أبو حامد الغزالي الصوفي لا أبو حامد الفقيه أو الأصولي، وبما أنه كذلك فقد صار يُمارس التقية كأصل من أصول التصوف، وبها أصبح يُمارس مختلف طرق التضليل والتحريف التزاما بالتصوف وانتصارا له، ولا يجد في ذلك حرجا في ممارسته، ولا في التلاعب بالأخبار، ولا في تقرير خلاف ما يُبطن.فقد أصبح يطبق مقولة : الغاية تُبرر الوسيلة، وتوسع هو في تطبيقها في كتابه إحياء علوم الدين تقريرا للتصوف وانتصارا له[1].

ومن أقواله في التقية تقريرا وحثاً على ممارستها وتبريرها ، أنه قال: ((وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار ..))[2].

و((وقال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر. وقال بعضهم: للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ،وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام .))[3].

وبعدما تكلم الغزالي في جانب بما يعتقد أنه من حكاية علوم المكاشفة ، ذكر أن ((شرح جميع علوم المكاشفة مما لا رخصة في ذكره ، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ...))[4]. وأشار إلى الناس ينكرون على الصوفية أقوالهم ويجهلون مقصودهم فيضحكون عليهم لجهلهم بمعاني كلامهم و((ضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين))[5].

ومنها قوله :

إذا كان قد صح الخلاف فواجب ** على كل ذي عقل لزوم التقية[6].

---

[1] أثبت ذلك بعشرات الشواهد في كتابنا: التضليل والتحريف في إحياء علوم الدين .

[2] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص: 20 .

[3] الغزالي: إحياء ،ج 1 ص : 100 .

[4] الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الآفاق العربية، حققه محمد محمد تامر ، ط1 ، القاهرة، 2004 ، ج 3 ص: 532 .

[5] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 4 ص: 118 .

[6] الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص: 191 .

وقرر مبدأ تعدد الخطاب لدى الشخص الواحد وحث عليه بقوله:((ولكل كامل ثلاثة مذاهب بهذا الاعتبار. فأما المذهب بالاعتبار الأول، فهو نمط الآباء والأجداد، ومذهب المعلم ومذهب أهل البلد، الذي فيه النشوء. وذلك يختلف بالبلاد والأقطار، ويختلف بالعلمين. فمن ولد في بلد المعتزلة أو الأشعرية أو الشفعوية أو الحنفية، انغرس في نفسه منذ صباه التعصب له والذبّ دونه والذم لما سواه... المذهب الثاني ما ينطبق في الإرشاد والتعليم على من جاءه مستفيداً مسترشداً. وهذا لا يتعين على وجه واحد، بل يختلف بحسب المسترشد، فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه... المذهب الثالث ما يعتقده الرجل سراً بينه وبين الله عز وجل، لا يطلع عليه غير الله تعالى، ولا يذكره إلا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع، أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهم))[1].

والغزالي بتلك الأقوال هو ملتزم بالتقية في التصوف ومُطبق لها ،ويسير على نهج شيوخه الأوائل المؤسسين للتصوف والتقية معا. منها مثلا أقوال للأبي القاسم الجنيد البغدادي (ت 297 هـ) ، فعندما كشف الحسين بن منصور الحلاج عن حقيقة حاله وقوله بوحدة الوجود قال الجنيد : ((لقد فضحنا الحلاج))[2].

وعندما وصلته رسالة من الصوفي أبي بكر الشلي (ت 334 هـ) تضمنت التلميح بكشف سر الصوفية في القول بوحدة الوجود من دون تصريح ، رد عليه الجنيد بخطاب ، منه قوله: ((يا أبا بكر، الله الله في الخلق، كنا نأخذ الكلمة فننشقها، ونقرظها، ونتكلم بها في السراديب، وقد جئت أنت فخلعت العذار! بينك وبين أكابر الخلق ألف طبقة، في أول طبقة يذهب ما وصفت))[3]. وفي رواية أنه قال له : ((نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ))[4].

وأنشد الجنيد في لاميته :

تروح بعز مفرد من صفاته *** وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ***وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه *** وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم *** وأمنع منه ما أرى المنع يفضل

[1] الغزالي: ميزان العمل ، حققه سليمان دنيا، دار المعارف ، القاهرة، 1964 ،ص: 405 .
[2] يحيى بن معاذ : جواهر التصوف ، جمع وتعليق سعيد عاشور،، مكتبة الآداب ن القاهرة، 2002 ، ص: 215 .
[3] السراج الطوسي: اللمع ، ص: 305-306 .. و محمود القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، ص: 10 .
[4] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 145 .

على أن للرحمن سرا يصونه *** إلى أهله في السر والصون أجمل[1].

وقال الجنيد : ((أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة :لو سمعها العموم لكفروهم))[2]. و((لا ينبغي للفقير قراءة كتب التوحيد الخاص، إلا بين المصدقين لأهل الطريق، أو المُسَلِّمين لهم))[3]. وقال في رسالة إلى أحد إخوانه : ((... وأنا أسأل المنان بفضله وطوله أن يجعلنا وإياك من الأمناء على سره الحافظين لما استحفظوه من جليل أمره ...))[4].

ومن ذلك أيضا ما ذكره الصوفي عبد الوهاب الشعراني عن أبي القاسم الجنيد ، فقال: ((وكان الجنيد -رضي الله عنه- لا يتكلم قط في علم التوحيد، إلا في قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره، ويأخذ مفاتيحها تحت وركه ويقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته، ويرمونهم بالزندقة، والكفر، وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه كما سيأتي آخر هذه المقدمة، فكان بعد ذلك يستتر بالفقه إلى أن مات))[5].

ومن هؤلاء الصوفية أيضا: أبو الحسين أحمد النوري البغدادي (ت 295هـ) ، رُوي أنه قال للجنيد عندما التف الناس حوله، وتركوا النوري: ((يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك على المنابر ونصحتُهم فرموني في المزابل))[6].

ومنهم أبو العباس بن عطاء البغدادي (ت 310 هـ)، اعترف أنه يتعمد استخدام الإشارة لكي لا يكشف حقيقة تصوفه، فيجيب بالتلغيز والتعمية إخفاءً لحاله. من ذلك أنه أنشد :

إذا أهل العبارة سألونا **** أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضاً ** ** تقصر عنه ترجمة العبارة[7].

---

[1] الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج 4 ص: 337 .
[2] الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج 6 ص: 422 .
[3] الشعراني: الطبقات الكبرى ، ص: 277 .
[4] أبو نعيم الأصبهاني: الحلية ، ج 10 ص: 280 .
[5] الشعراني: الطبقات الكبرى ، ص: 15 .
[6] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 146 .
[7] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص: 89 .

والصوفي أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابوري ثم البغدادي (ت 328 هـ) ، سُئل عن التصوف فقال: " الإشكال والتلبيس والكتمان". ثم أنشد يقول:

سري وسرك لا يعلم به أحد ** إلا الجليل ولا ينطق به نطق

وانشد أيضاً:

إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا ** لكيلا يحسبوا أن الهوى حيث تنظر[1].

ومنهم شيخ الصوفية أبو بكر الشبلي (ت 334 هـ)، أظهر بالتلميح جانبا من سر الصوفية الذي حرصوا على إخفائه عن المسلمين، فأنكر عليه أبو القاسم الجنيد وأنبه بقوله : ((نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ))[2]. وروى الخطيب البغدادي بإسناده ((أنبأنا بن الفتح، أنبأنا محمد بن الحسين قال: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: " كنت أنا والحسين بن منصور-الحلاج- شيئا واحدا إلا أنه أظهر وكتمت"))[3].

وآخرهم الصوفي أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري البغدادي(ت371هـ)، قال : ((عرّضوا ولا تصرحوا فان التعريض أستر))[4].

فالقوم كلهم على منهج واحد والغزالي منهم، والتقية من التصوف وممارستها من ضرورياته، ولا حرج عندهم من تطبيقها باستخدام مختلف الطرق ، لأن الغاية عندهم تُبرر الوسيلة.

وخامسا إن من مميزات تجربة أبي حامد الغزالي أنها تجربة فاشلة بميزان الشرع والعقل والعلم ،إنها فاشلة منطلقا وممارسة وآثارا. فأما منطلقا فقد سبق أن بينا أن الغزالي كان مُخطئا في تبنيه للتصوف طريقا لليقين ، فلم ينقده ولا محصه تمحيصا صحيحا، ولا أقام الأدلة على صحة اختياره ولا على صواب تصوفه، ولا وزنه بميزان الوحي والعقل والعلم.

---

[1] ابن الملقن: طبقات الأولياء، ص: 23 . وأبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: 100 .
[2] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 145 .
[3] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج 8 ص: 121 . و الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 11 ص: 534 .
[4] ابن الملقن : طبقات الأولياء ، ص: 36 .

وأما ممارسة فإن الرجل لما تفرّغ لتطبيق عبادات الطريق الصوفي لمدة أكثر من عشرة سنوات فإنه دخل في عزلة ليست من دين الإسلام[1]،فكانت حصيلتها صفرا تقريبا ، ولم يكتسب منها إلا تضييع الوقت، وإفساد عقيدته ، والتعلق بالأوهام والهلوسات، وتعذيب الجسم ، ومخالفة الشرع والعقل والعلم حتى انتهى به الأمر القول بوحدة الوجود- الفناء في الله حسب زعم الصوفية- .

وأما آثارها الإيمانية والعلمية، فإن الحقيقة هي أن تجربة الغزالي لم توصله إلى اليقين الحقيقي الذي كان يطلبه، ولا أثمرت العلوم التي كان يرجوها ، ولا التي قال أنه وصل إليها بالكشف الصوفي . والدليل على ذلك هو مصنفه إحياء علوم الدين، فهو أهم كتبه أكبرها وأوسعها، إنه كتاب يشهد على نفسه وصاحبه بالحصيلة الصفرية التي جناها الغزالي من تجربته الصوفية، بدليل الشواهد الآتية: أولها إن قسما منه يتعلق بالعلوم التي اكتسبها الغزالي قبل تصوفه كالفقه وعلم الكلام والفلسفة، فهو قسم لم يأخذه من التصوف . والثاني إن قسما آخر منه نقله من العلوم الأخرى كالتاريخ والحديث والأخلاق و الزهد الطب والفلك. والشاهد الثالث إن الكتاب تضمن أخطاء وانحرافات شرعية وتاريخية وعلمية كثيرة جدا، فأين علم المكاشفة ؟؟. والشاهد الأخير- الرابع- تضمن القسم المتعلق بالتصوف كنتائج وغايات للكشف الصوفي المزعوم وهذا معظمه مزاعم ودعاوى جوفاء ، وأباطيل وهلوسات وتلبيسات ، وتظاهر بالوَلاية و المعرفة والفناء في الله ، وهذه أكثر الغزالي من تكراراها والتظاهر بها لكنها كانت دعاوى من دون رصيد حقيقي فلم يكن لها أي مردود علمي صحيح ، وإنما كانت حصيلتها صفرية ومدمرة للوحي والعقل والعلم[2] . فكانت نتيجة تجربته ليس فقط كما قيل: إن أبا حامد الغزالي باع الفقه بالتصوف،وإنما أنه باع الشرع والعقل والعلم بالتصوف. فلو كانت تجربته ناجحة وصحيحة ما كانت حصيلتها صفرا ووبالا على صاحبها.

وأما إذا أُعترض علينا ، وقيل: على أي أساس تكذب الرجل في قوله بأنه وصل إلى اليقين مع أنه صرّح بذلك مرارا بأنه تذوّقه ، وقد عنوّن كتابه ب : المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال ؟؟ فهل يصح تكذيبه في ذلك ؟؟ .

[1] توسعتُ في بيان ذلك في كتاب: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف .
[2] وثقنا ذلك في كتابنا: التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

وأقول: إن أبا حامد الغزالي قال ذلك بناء على تجربته الذاتية ، لكني أخالفه بذلك بل وأُخطِئه في تجربته ونتائجها ، وأجزم أن ما وصل إليه لم يكن يقينا صحيحا ولا حقيقيا وإنما كان يقينا صوفيا زائفا فاسدا مُلَبسا به على صاحبه ، لأنه لا يُمكن أن يصل الرجل إلى اليقين الحقيقي وقد انحرف عن الطريق المستقيم في طلبه لليقين، وقد انحرف عنه منطلقا ، وممارسة، ونتيجة. بدليل الشواهد الآية:

أولها إن الغزالي أغفل الشرع كمصدر للمعرفة وطريق إلى اليقين ، وحصر ذلك في علم الكلام والفلسفة والتشيع الإمامي والتصوف . فالرجل انحرف عن الشرع وضل الطريق من أول خطوة .

وثانيها إنه لم يطلب التزكية الإيمانية واليقين القلبي بالطريق الشرعي، فهو ظل الطريق من أول خطوة، فهو لن يصل إليه. ولا توجد تزكية شرعية من خارج الشرع نفسه. لأن الله تعالى جعلها ثمرة من ثمار الإيمان بالإسلام وتطبيقه: الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى: ((أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(يونس:62-64)) ، و ((وَلَكِنَّ اللَّهَ حبب إليكم الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)(الحجرات: 7)) و((أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (الأنعام : 122))، و ((وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)(النور: 40))،و ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)(الأنفال: 2)).

والشاهد الثالث مفاده أنه سبق أن بينا أن الغزالي أخطأ كثيرا في نقده للطرق التي حصر فيها طرق طلب اليقين ، فضيّع على نفسه سُبلا كان يُمكنها أن ترجعه إلى الصراط المستقيم.

والشاهد الرابع: إن الرجل أخطأ في اختياره للتصوف فقد تبناه من دون أي براهين ولا أدلة صحيحة من الشرع ولا من العقل ولا من العلم تشهد

على صحة اختياره ؛ فدخل في طريق التصوف بلا ميزان صحيح لنقد التصوف.

والشاهد الخامس: إن التصوف انتهي بالغزالي إلى نتائج هادمة للشرع والعقل والعلم عندما ادعى علم غيوب السموات والأرض، وقال بوحدة الوجود، ونقض النبوة بدعوى الولاية الصوفية، وهذه النتائج المدمرة وغيرها دوّنها في إحياء علوم الدين وقد بينت بطلان قوله بها في نقدي لهذا الكتاب.

والشاهد السادس: إن الرجل طلب اليقين القلبي بالتصوف، وبما أن التصوف مخالف للشرع بأصوله وفروعه وغاياته، وهادم للوحي والعقل والعلم[1]، فإنه لن يوصل أتباعه إلى اليقين القلبي الصحيح، لفساده وبطلانه، وفاقد الشيء لا يُعطيه .

والشاهد السابع: إن حصيلة الغزالي العلمية من التصوف كانت صفرا تقريبا ، فهي كذلك بدليل كثرة الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها الرجل .وقد تجلى ذلك في ناحيتين: الأول إن معظم ما دونه من أفكار ومذاهب وعلوم في إحياء علوم الدين نقلها من الكتب عن أصحابها من جهة ، وما فيه من التصوف معظمه أباطيل وأوهام وهلوسات وتلبيسات وتلاعبات وتحريفات من جهة ثانية. والناحية الثانية هي إن الرجل كان غارقا في الأخطاء الشرعية والتاريخية والعلمية كما بينته في نقدي لإحياء علوم الدين.

والشاهد الأخير- الثامن - إن التصوف لم يُهذب الغزالي ولا زكاه تزكية صحيحة قلبا وقالبا، بدليل أنه أصبح يعتقد بالتقية ومارسها بشكل واسع في إحياء علوم الدين باستخدام مختلف طرق التضليل والتحريف. وأورثه أيضا تعالماً وتكبرا على غيره من أهل العلم، فازدرى بهم وبعلومهم، وألحقهم بأهل الظاهر والرسوم، وجعل نفسه وأصحابه من أرباب القلوب والمكاشفة، والحقائق والأنوار ،بل تعالم حتى على الشرع وتقدم عليه عندما جعل علومه وتوحيده خاصا بالعامة ، وتوحيد التصوف وعلومه خاصا بالصوفية وهم خاصة الخاصة حسب زعمه[2]. بل إنه أيضا لم يتخلص من

---

[1] أثبتنا ذلك بالأدلة الدامغة والقطعية في: نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف . و التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين.
[2] فصلنا ذلك وبينا بطلان مزاعم الغزالي في كتابنا: التضليل والتحريف في إحياء علوم الدين .

بعض أخلاقه التي كانت فيه قبل تصوفه وازدادت رسوخا وممارسة ، منها مثلا أنه قبل تصوفه اتصف بأخلاق سيئة ، منها أنه كانت فيه زعارة وإيحاش الناس، والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبراً و((ايحاش الناس، والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق، والخاطر، والعبارة، وطلب الجاه، والعلو في المنزلة))[1].

ثم أنه عندما تصوف ومارس التصوف مدة طويلة وبلغ نهاياته وجدناه يرفض نقد بعض أهل العلماء له فيما كتبه في إحياء علوم الدين، ويُهاجمهم بعنف واتهام وتكبر وسوء ظن ، وشن عليهم هجوما عنيفا تجريحا وتشهيرا واتهاما ، ولم يقبل نقدهم له وتعالم عليهم ورفض انتقاداتهم له بغرور وتعالم وتكبر، فبدأ رده عليهم بقوله : ((سألتَ...عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حُجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قِدْحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام وأمثال الأنعام وإجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الإسلام، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال؛ فإلى الله انصرافهم ومآلهم وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم فستكتب شهادتهم ويسألون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمين في شقاق بعيد ولا عجب فقد ثوى أدلاء الطريق وذهب أرباب التحقيق فلم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق إلى أن قال حجبوا عن الحقيقة بأربعة الجهل والإصرار ومحبة الدنيا والإظهار.....))[2]. فأين أخلاق الصبر وحسن المعاملة، والتسامح ومجاهدة النفس التي توسع الغزالي في شرحها والدعوة إليها في كتابه الإحياء ؟؟ !! . فهل تلك الشتائم والاتهامات والألفاظ الجارحة هي من أخلاق العلماء الربانيين وأرباب القلوب ؟؟ !! . وهل ،،، ؟وهل ،،، ؟ . فلو كان التصوف صحيحا وأوصل الغزالي إلى اليقين الحقيقي لزكاه التزكية الشرعية، لكن الحقيقة هي أنه صوّفه بأخلاق التصوف ولم يزكه بالتزكية الشرعية !! .

---

[1] الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج 35 ص: 115.

[2] الغزالي: ملحق إحياء علوم الدين : الإملاء في إشكالات الإحياء، المكتبة التجارية ، ص: 13 – 14 .

وبناءً على تلك الشواهد فهل من تنطبق عليه يكون قد وصل إلى اليقين الصحيح ؟، كلا وألف كلا ، إنه لم يصل إليه ،ولن يصل إليه كل من اتبع منهج الغزالي . ولذلك فإن أي يقين مزعوم لا يقوم على منهج صحيح ولا يكون موزونا بميزان الشرع والعقل والعلم، ولا تكون نتائجه موافقة لهذه المصادر فهو يقين باطل وزائف ومغشوش ولن يكون صحيحا حتى وإن زعم صاحبه أنه وصل إليه . وهو إما إنه جاهل ، أو مريض، أو مخدوع مُلبس عليه، أو كاذب قال ذلك لغاية في نفسه. علما بأن مثل ذلك الزعم يستطيع أي إنسان أن يدعيه بحق وبغير حق ، وهذا الذي يقوله أكثر الناس مع أديانهم ومذاهبهم ، قال تعالى: ((كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)(الروم : 32)) ، و((إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)(يونس: 7))،)). فنحن لا نترك حقائق الوحي والعقل والعلم ونصدق إنسانا زعم أنه بلغ اليقين وتذوقه مع أنه منحرف عن المنهج الصحيح منطلقا وممارسة وغاية . إنه من حقنا أن نُخطِئه ، بل ويجب علينا فعل ذلك ، ولا يصح السكوت عنه ولا تصديقه.

وأما إذا قيل: ألم تكن للتجربة إيجابيات تستحق أن تُذكر لأبي حامد الغزالي وتجربته ؟؟. فأقول : لاشك أن للتجربة بعض الإيجابيات ، لكنها قليلة وهامشية بالمقارنة إلى كثرة سلبياتها وخطورتها على الغزالي والمتأثرين به. لكن مع أنها بينت كثرة أخطاء الرجل وانحرافاته، وأنها نقلت صاحبها من ضلال إلى ضلال أخطر مما كان فيه !! ؛ إلا أنها أظهرت حقائق وفوائد وعِبر هامة جدا ينتفع بها الناس عامة وأهل العلم خاصة . منها أنها أظهرت أن أبا حامد الغزالي كان من بين العلماء المتقدمين والمعاصرين الذين تعرّضوا للشك والحيرة طلبا لليقين، فكان من الفاشلين والخاسرين ولم يكن من الناجحين والفائزين في التعامل معها !!. وأنها بينت ضرورة الاهتمام بالتكوين المتوازن لبناء الفرد المسلم فكريا وروحيا وجسديا، على أن تكون التزكية الشرعية هي المنطلق دوما ، لأنها هي العمود الفقري الذي تقوم عليهشخصيته. ومنها ضرورة الحذر من التصوف وعدم الاغترار بما فيه من مظاهر الاهتمام بالذكر والعبادات من جهة ، وما يدعيه من مزاعم جذابة تتعلق بالأحوال والمواجيد من جهة أخرى، فهي في الحقيقة دعاوى جوفاء وقاتلة. والتصوف هو دين قائم بذاته معطل للشرع وهادم للوحي والعقل والعلم مع تستره بالإسلام . إنه قاتل للإنسان ومُدمر له، والغزالي مع مكانته العلمية فقد كان من ضحاياه !!.

ومنها أيضا أن تلك التجربة أظهرت أن الجانب القلبي- الروحي- من الإنسان لا يختلف عن الجوانب الأخرى منه عندما نربيه ونُزكيه، فيجب إخضاعه أيضا لميزان الوحي والعقل والعلم ، وإلا سيكون مُهلكاً للإنسان، لأن القلب وحده لن يستطيع القيام بذلك، ولا أن يعمل منفردا .

وأخيرا- سادسا - : بما أن أبا حامد الغزالي فشل في تجربته مع الشك والحيرة واليقين، فانتقل من ضلال إلى أضلال أخطر مما كان فيه فما هي أسباب فشله ؟؟ .

أقول: إن أسباب فشل الرجل كثيرة ومتداخلة، منها أسباب أساسية وأخرى ثانوية. أولها إغفاله للطريق الشرعي وإبعاده من طرق المعرفة والهداية واليقين ،مع أنه هو الصراط المستقيم، فحرم نفسه من نوره. فالرجل لم يُحسن التعامل مع أزمته من أول خطوة، ولا انتبه إلى أن ما أصابه هو مظهر من مظاهر سنة الله في الاختبار والبلاء والتمحيص. فهو سبحانه كما أنه يبتلي بالأمراض العضوية، فإنه يبتلي أيضا بالشهوات والشبهات، والأمراض النفسية . فكان على الرجل أن يرجع إلى الشرع بكل جوانبه بصدق وإخلاص ويعرض حاله عليه .

والسبب الثاني: حَصْر الغزالي لطرق الطالبين للحق واليقين في أربعة طرق: طريق المتكلمين، والفلاسفة ، والشيعة الإمامية، والصوفية . وهذا الحصر غير صحيح، لأنه أغفل الشرع وأبعده كما ذكرنا سابقا، وأغفل أيضا طريق أصحاب الحديث مع أنه يُمثل بنفسه طريقا إلى الحق ضمن الطرق الأخرى . فعدم ذكر الرجل له حرم نفسه من طريق ثانٍ- بعد الشرع- يرجعه إلى صراط المستقيم. لأن مذهب أهل الحديث- منهجا ومضمونا- هو مذهب موافق للشرع بأصوله العامة خلاف المذاهب الأخرى التي هي مخالفة له بأصولها العامة وبكثير من فروعها.

والسبب الثالث- في فشل تجربته -: قصور منهجه العلمي في البحث والاستدلال. فقد تبين أنه أخطأ في نقده لوسائل المعرفة ، وفي حصره لطرق الطالبين ونقده لهم، وفي تبنيه للتصوف ، وفي مواقفه من النبوة. فالرجل لم يكن يعتمد على وحي صحيح، ولا عقل صريح ولا على علم صريح، ولو اعتمد على هذه المصادر ما فشل في تجربته وما كانت وبالا

عليه . بل لو أحسن استخدام واحد من منها فقط لجنب نفسه ما وصل إليه، لأن هذه المصادر هي متكاملة ومتناسقة ومتوافقة وكل منها يُوصل إلى الآخر. لكن الرجل سد على نفسه طرقا كان من المُمكن أن تُرجعه إلى الصراط المستقيم ، وتُوصله إلى اليقين، وتُجنبه التصوف وتُمكنه من نقده النقد العلمي الصحيح . وبسبب انحرافه عن المنهج العلمي في البحث والاستدلال وجدناه قد تصوف ولم يقم دليلا صحيحا على صحة اختياره، ولا على صحة تصوفه، ولا نقد التصوف كما نقد الطرق الأخرى، ولا رد على النقد الذي يُمكن أن يوجه إليه.

والسبب الرابع هو أن الغزالي - في تجربته مع الشك واليقين كان- باحثا عن الاطمئنان الروحي والعلم اليقيني القلبي أكثر مما كان باحثا عن الشواهد والبراهين الصحيحة الدالة على الحق والمحكومة بميزان الوحي والعقل والعلم . ولهذا لم ينقد الحواس والعقل نقدا صحيحا ، ولا نقد علم الكلام والفلسفة نقدا شاملا صائبا من كل الجوانب . ولا يصح الاعتماد على العاطفة والوجدان بدعوى طلب الاستقرار والاطمئنان النفسيين، لأن هذا وحده لا يكفي لطلب اليقين والظفر به، ولا بد أن يكون ذلك قائما على منهج علمي صحيح في البحث والاستدلال . لأن كل الطوائف والمِلل تدعي لنفسها الحق واليقين وأنها مُطمئنة بما هي عليه من عقائد. قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (يونس: 7))، و((تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النحل: 63)) ، فلا يصح الانخداع بما يجده الناس في نفوسهم من استقرار واطمئنان نفسي، فقد يكون ذلك شعورا خادعا وزائفا، ويجب تمحيصه بميزان الوحي والعقل والعلم، للتأكد من حقيقته. وقد يصل الإنسان إلى اليقين القلبي وهو على خطأ بل ولم يعرف الحقيقة أصلا، وقد يصل إليها ولم يكن قد استقر قلبيا ووجدانيا لأن هذا الأمر له مستوى آخر ويحتاج إلى وقت ليستقر في القلب . فالغزالي خُدع أولا بمزاعم الصوفية المتعلقة بالعلم واليقين ، وحب الله والمكاشفة، والوصول والفناء ، ثم عندما مارس طريقهم خُدع ثانيا بأحوالهم التلبيسية والهلوسية كما هو حال الرهبان البوذيين والنصارى ومتناولي المخدرات المهلوسة . ولاشك أن الغزالي كان يعتقد أن الله تعالى هو الذي ووجهه وهداه إلى طريق التصوف ، لكن الحقيقة خلاف ذلك ، فلو كان الله هو الذي هداه إلى التصوف ورضيه له لما أغفل الشرع ، ولما أخطأ في النقد والاختيار، ولما انتهى أمره إلى هدم الوحي والعقل والعلم . ولهذا فإن

الحقيقة هي أن الغزالي كان ضحية نفسه وشيطانه، ومن الذين يصدق عليهم قولـه تعـالى : ((الَّـذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُـمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)(الكهف: 104)). ((وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)(العنكبوت: 38)) .

وبما أن الغزالـي تبنـى التصـوف مـن دون نقد ولا تحقيق ، ولا ذكـر أدلـة تُثبت صحة اختياره له، فإن هذا يعني أنه كان طالبا لليقين القلبـي الصـوفي لا لليقـين الصـحيح . ولـذلك وجـد كـلام الصـوفية مكانـا فـي قبـل الرجـل وصادف هوى في نفسه، بحكم أن الصوفية وكتبهم هم من أكثر الناس كلاما عن القلوب واليقين والأحوال القلبيـة، مـع أن هذا لا يعنـي صـواب منـهجهم ولا تصوفهم، فهم كغيرهم من النـاس المهتمين بجوانـب أخرى من الإنسـان كالعقـل، والجسـم . لأن العلـم لا يُعـرف إلا بالأدلـة الصـحيحة مـن الشـرع والعقل والعلم، وما يختاره القلب من مواقف يجب أيضـا إخضـاعها لميزان الوحي والعقل والعلم.

والسـبب الأخيـر- الخـامس - : هـو عـدم قيـام الغزالـي بنقد ذاتـي علمـي لمسـاره الصـوفي بعدما تصـوف ومـارس عبـادات الطريـق الصـوفي مـدة زادت عن عشرة سنوات حتـى وصـل إلـى نهاياتـه الهادمـة للوحي والعقل والعلم. فالرجل كمـا أخطـأ فـي نقده للتصـوف واختيـاره لـه فـي البدايـة، فإنـه استمر على خطئه عندما مارسه وانتهى إلـى ضلالاته وكفرياته. إنه لم ينتبـه ليتوقف ويُعيد النظر في تصوفه وما نتج عنه، بل ازداد تمسكا به وجند نفسه للدفاع عنه بحق وبغير حق، وبمختلف وسائل التضليل والتحريـف كمـا فعـل في كتابه إحياء علوم الدين !! .

وأما إذا قيل: هل رجع أبو حامد الغزالي إلى الطريق الشرعي في التزكيـة القلبية ، أم بقي صوفيا إلى آخر أيامه ولماذا ؟؟.

وأقول: إن ما قيـل عن توبـة الغزالـي عن التصـوف ورجوعـه إلـى منـهج القرآن والسنة وطريق السلف الصالح لم يثبت ، والصحيح أنـه بقـي صـوفيا إلى أن مات[1] .

[1] ناقشتُ ذلك وبينته في كاب : التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين .

وأما لماذا بقي مُتمسكا بالتصوف ؟؟، فيرجع ذلك إلى سببين أساسيين: أولهما افتقاد الرجل للبديل الشرعي في التزكية الروحية علميا وعمليا، واستهواء التصوف له ووقوعه في شباكه بعد ممارسته له مدة طويلة.

والثاني هو عدم قيام الغزالي بمراجعات نقدية تمحيصية لمساره الصوفي: مُنطلقا ، وممارسة، ونتيجة . فحال ذلك دون الرجل من أن يعود إلى الشرع ويتخلص من التصوف . إنه كان مُكبلا بقيود التصوف وأغلاله فأنى له أن يستفيق !! . وتفسيرنا هذا ليس تبريرا لموقف الغزالي وإنما هو وصف لحاله وبيان لما أصابه ، وإلا فكان من الممكن أن يتخلص مما وقع فيه لو أحسن التصرف مع حالته .

وأما إذا قيل: هل صحيح أن الغزالي وقع في خداع التصوف وشبهاته وزيوفه وهلوساته وتلبيساته ؟ .

وأقول: نعم إنه وقع في ذلك ، لأنه لو لم يقع فيه ما أغفل الشرع وأبعده من طريقه، وما اختار التصوف بلا نقد ولا تمحيص، ولا مارس الطريق الصوفي أكثر من عشرة سنوات ، ولَمَا قال بالتقية ولا مارس مختلف أنواع التضليل والتحريف، ولَمَا دافع عن ضلالات التصوف وكفرياته في كتابه إحياء علوم الدين .

وإنهاء لهذا الفصل- الخامس والأخير- يُستنتج منه أن أبا حامد الغزالي أغفل الشرع وأبعده من طريقه عن قصد لغاية في نفسه، لأن فعله هذا ليس مما يُنسى . ومع أنه لم يصرّح لماذا أبعده من أن يكون طريقا إلى المعرفة والهداية واليقين ؟؟ ، إلا أن البحث في حاله وموقفه بيّن أنه فعل ذلك لغفلته عن التزكية الشرعية، وضعف إيمانه بالإسلام أثناء أزمته التي ألمت به ، ولثقته العمياء في التصوف وأهله.

وتبين أيضا أن الغزالي عندما أغفل الشرع وأبعده من طريقه ، وطعن في الحواس والعقل والعلم تبنى التصوف من دون حصانة داخلية تأثرا به ،وحبا فيه، وأملا أن يجد فيه مطلوبه . فوقع فريسة له ،وكبّله بقيوده وأغلاله ، وأوقعه في أخطاء وانحرافات كثيرة جدا؛ فضلّ الطريق ، ولم

يصل إلى اليقين الصحيح الذي تصوّف من أجله، وفشلت تجربته مع الشك واليقين لأسباب عديدة سبق أن فصلناها.

الخاتمة

أظهر نقدنا لتجربة أبي حامد الغزالي مع الشك واليقين حقائق ومعطيات كثيرة وهامة، منها أولا فقد تبين أن الرجل وقع في أخطاء عديدة وجسيمة كانت سببا في فشل تجربته مع الشك واليقين. منها أنه أخطأ خطأ فاحشا عندما أغفل الشرع وأقصاه من أن يكون من وسائل المعرفة وطرق الهداية واليقين ، وعندما أغفل طريق أهل الحديث ولم يذكره من بين طرق الطالبين لليقين. وأخطأ عندما نفى من أن تكون المعرفتين الحسية والعقلية من وسائل المعرفة، مع أن الحقيقة خلاف ذلك ، فهما من وسائل المعرفة الموصلة إلى اليقين. وأخطأ عندما حكم على علم الكلام والفلسفة بأنهما غير قادريّن على إيصال الطالبين إلى اليقين، مع أن الحقيقة هي أنه يُمكن أن يُوصلا إليه إن صدقت النية وصح المنهج. لكنه أصاب في حكمه على الإمامة الشيعية بأنها لا توصل إلى اليقين من جهة ، وفاته النقد الأساسي الذي يُقوضها من جهة أخرى . وأخطأ عندما اختار التصوف طريقا لليقين ، وقد بينا فساد وبطلان زعمه هذا.

وثانيا اتضح أيضا أن أبا حامد الغزالي فوّت على نفسه الصراط المستقيم بإغفاله للشرع وإبعاده له. وحرم نفسه من طريق أصحاب الحديث الذي لو اتبعه لرده إلى الوحي والعقل ، وحرم نفسه أيضا من الجانب الصحيح في علم الكلام والفلسفة ، فلو أحسن نقدهما لأرجعاه إلى طريق الله ورسوله. ولو نقد التصوف نقدا صحيحا ورفضه كما رفض طريق المتكلمين والفلاسفة والشيعة الإمامية لكان من الممكن جدا أن يرده نقده لهؤلاء إلى الوحي الصحيح ، والعقل الصريح ، والعلم الصحيح . لكن المؤسف حقا أن الغزالي لم يتمكن من تصحيح منهجه ، ولا أفاق من غيبوبة التصوف ، فضل وأضل ، وانتقل من ضلال إلى ضلال ولم ينقذه مُنقده من الضلال ، ولا أوصله إلى ذي العزة والجلال!! .

وثالثا تبين أن الأزمة التي ألمت بالغزالي لم تكن في أساسها أزمة فكرية، وإنما كانت وجدانية قلبية تبحث عن اليقين القلبي الذوقي. ولهذا لم نجد للرجل قضايا وإشكالات فكرية معينة شغلته وأرقته بحثاً لها عن حلول،

ولا كانت سببا فيما حدث له. فلم يكن الرجل يبحث عن إجابات لقضايا وانشغالات فكرية، وإنما كان يبحث عن اليقين القلبي بعدما كان قد تبحر في الفقه والخلاف والجدل ، وأحدث فيه ذلك فراغا وجفافا روحيا لبعده عن التزكية الشرعية .

وأخيرا - رابعا – واتضح أيضا أن الغزالي الذي نقد الحواس والعقل وطرق الطالبين وحكم عليها بعدم قدرتها على الوصول إلى اليقين ،فإنه قد تبنى التصوف من دون نقد ولا إقامة أي برهان على صحته من جهة ، ولا طبق عليه منهجه وشروطه في طلب العلم اليقيني من جهة ثانية، ولا أخضعه للنقد باليقينيات العقلية التي قال أنه كان يعتقد بها فقط من جهة ثالثة. ولو طبقها عليه لرده من أول وهلة وما تبناه ، لأن التصوف ليس له أية مقومات موضوعية صحيحة يقوم عليها من الشرع ، ولا من العقل ، ولا من العلم.

تم الكتاب ولله الحمد أولا وأخيرا

الأستاذ الدكتور خالد كبير علال
الجزائر: شعبان 1435 هـ / جوان 2014 م

<u>أهم المصادر والمراجع:</u>

1- القرآن الكريم
2 - ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ،حققه محمد رشاد سالم، ط 1، مؤسسة قرطبة، 1406 هـ .
3- ابن تيمية : مجموع الفتاوى، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/ 1995 م.
4- ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل، حققه رشاد سالم، ار الكنوز الأدبية، الرياض .
5- ابن الملقن : طبقات الأولياء ، دون معلومات نشر .
6- ابن كثير : البداية ، مكتبة المعارف، بيروت .
7- ابن مفلح المقدسي :الآداب الشرعية و المنح المرعية ،حققه محمد رشيد رضا بيروت دار العلم للجميع ،1972
8- ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، ط1 القاهرة دار الحديث ، 1404
9- ابن الجوزي عبد الرحمن(ت597هـ/1200م): <u>المنتظم في تاريخ الأمم و الملوك</u> ، حيدر أباد الهند ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، 1359 .
10- ابن الجوزي : <u>تلبيس إبليس</u> ، حققه نخبة من الباحثين ، د م ن ، دار النور الإسلامية ، د ت.
11- ابن رجب: الذيل على طبقات ، حققه محمد حامد الفقي ، القاهرة مطبعة السنة المحمدية ، 1953 .
12- ابن حجر: لسان الميزان ، ط1 ، مؤسسة الأعلمي، 1971 .
13- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، حققها محمود الأرناؤط ، دار ابن كثير .
14- ابن قيم الجوزية: الصواعق المرسلة، دار الفكر، بيروت .
15- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ، حققه ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
16- ابن رشد : تلخيص السماء و العالم ، حققه جمال الدين العلوي
17- أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ، دار الكتاب العربي، بيروت .
18- أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية ، ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، حققه مصطفى عبد القادر عطا ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 .

19- أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، دون معلومات نشر .
20- أحمد بن إبراهيم الواسطي: : النصيحة في صفات الرب جل وعلا ، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت .
21- أحمد السيد : محاورات أرسطو و أصولها ، ط1 ، دار الوفاء ، الأسكندرية ، 2008 .
22- الأدفوي :الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، حققه سعد محمد حسن ،مصر الدار المصرية للنشر ، 1966 .
23- أرسطو : منطق أرسطو ، حققه عبد الرحمن بدوي ،ط 1 ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ن بيروت ، 1980 .
24- أرسطو : نظام الأثينيين ، ترجمة طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، دت .
25- أرسطو : السياسة ، ترجمة لطفي السيد ، منشورات الفاخرية ، د ت .
26- الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، بيروت.
27 الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف ، الرياض .
28- الألباني: صحيح ابن ماجة ، دون معلومات نشر .
29 - آن تري هوايت: النجوم، ترجمة إسماعيل حقي، ط 7 ، دار المعارف، القاهرة، 1992 .
30- البخاري : الصحيح ، حققه محمد زهير الناصر، ط1 ، دار طوق النجاة، 1422هـ .
31 - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، حققه عبد الرحمن المعلمي ، بيروت دار إحياء التراث العربي ، د ت .
32- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت .
33- الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت.
34- جمال بادي : الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب سيّر أعلام النبلاء للذهبي ، ط1 الرياض ، دار الوطن ، 1416.
35- خزعل الماجدي: بخور الآلهة ، ط1 ، الأهلية للنشر ، الأردن ، 1998.
36- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، حققه مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت.
37- سبتينو موسكاني : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، دار الرقي ، بيروت ، 1986.

38- السيد النشار : تاريخ الكتب و المكتبات في مصر القديمة ، دار الثقافة العلمية ، مصر ، 1999 .
39- زينب عفيفي : العالم في فلسفة ابن رشد الطبيعية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1993.
40- زينب عفيفي: الفلسفة الطبيعية و الإلهية عند الفارابي .
41 - القشيري : الرسالة القشيرية، حققه عبد الحليم محمود، و محمود بن الشريف ، دار المعارف، القاهرة .
42 - عبد الله مصطفى نومسوك : البوذية: تاريخها، وعقائدها، وعلاقة التصوف بها ، دون معلومات نشر .
43- عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، المكتبة العصرية، بيروت .
عبد الحميد سماحة: في أعماق الفضاء، دار الشروق، القاهرة، .1980
44- علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، .1992
45- عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، 1983 .
46- الغزالي: ملحق إحياء علوم الدين : الإملاء في إشكالات الإحياء، المكتبة التجارية .
47- الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت .
48- الغزالي: ميزان العمل ، حققه سليمان دنيا، دار المعارف ، القاهرة، .1964
49- الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الآفاق العربية، حققه محمد محمد تامر ، ط1 ، القاهرة، 2004 .
50- الغزالي: المنقذ من الضلال ، حققه سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الأسكندرية .
51 - الغزالي: مشكاة الأنوار ، دون معلومات نشر .
52- الغزالي: إحياء علوم الدين طبعة دار المعرفة ، بيروت .
53- الكليني، الأصول من الكافي ، ط3 ، دار الكتب الإسلامية، طهران ، 1388 هـ .
54- ماجد فخري: أرسطو : المعلم الأول، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1958 .
55- ماهر عبد القادر محمد علي: المنطق و مناهج البحث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1985 .

56- مسلم : الجامع الصحيح ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي – بيروت .
57- الموسوعة العربية العالمية ، النسخة الإلكترونية ،(1425هـ، 2004م.
58- محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1987 .
59- محمود القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ .
60- محمد عبد الرحمن مرحبا : الكندي - فلسفته مُنتخبات – عويدات ، بيروت ، باريس ، 1985 .
61- نعيم فرج : موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ، دار الفكر ، دمشق .
62 - يحيى بن معاذ : جواهر التصوف ، جمع وتعليق سعيد عاشور،، مكتبة الآداب ن القاهرة، 2002 .

المحتويات

أولا : نقد أقوال الغزالي في تبنيه للتصوف طريقا إلى اليقين.
ثانيا: نتائج وتعاليق وتساؤلات .

الفصل الخامس
نقد مواقف الغزالي من الإسلام أثناء تجربته وأسباب فشلها

أولا: نقد الغزالي في إغفاله للشرع عند نقده للمعرفة وطرق الطالبين
ثانيا: من مميزات تجربة الغزالي وأسباب فشلها

- الخاتمة :
- قائمة المصادر والمراجع:
- المحتويات :

مصنفات للمؤلف :

1- صفحات من تاريخ أهل السنة و الجماعة في بغداد .
2-الداروينية في ميزان الإسلام والعلم .
3- قضية التحكيم في موقعة صفين – دراسة وفق منهج علم الجرح و التعديل
4- الثورة على سيدنا عثمان بن عفان – دراسة وفق منهج علم الجرح و التعديل-
5- مدرسة الرواة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي و تدوينه .
6- الصحابة المعتزلون للفتنة الكبرى – دراسة وفق منهج أهل الجرح و التعديل
7- الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .
8- أخطاء المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون في كتابه المقدمة
9- الأخطاء التاريخية و المنهجية في مؤلفات محمد عابد الجابري و محمد أركون
10-أباطيل و خرافات حول القرآن الكريم و النبي محمد-عليه الصلاة و السلام- -دراسة نقدية لدحض أباطيل الجابري ،و خرافات هشام جعيط-
11- نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد –على ضوء الشرع و العقل و العلم
12- التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي- خلال العصر الإسلامي-
13- بحوث حول الخلافة و الفتنة الكبرى-وفق منهج علم الجرح و التعديل-
14- مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية .
15- وقفات مع أدعياء العقلانية - قراءة نقدية لفكر حسن حنفي ، و نصر حامد أبي زيد ، وهشام جعيط ، و أمثالهم- .
16- تناقض الروايات السنية و الشيعية حول تاريخ صدر الإسلام- مظاهره و آثاره ، أسبابه و منهج تحقيقه- .
17- جنايات أرسطو في حق العقل و العلم .
18- مخالفة الفلاسفة المسلمين لطبيعيات القرآن الكريم .
19- منهج أهل الحديث في الرد على المتكلمين-أُسسه و تطبيقاته-
20- قضايا تاريخية وفكرية من تاريخنا الإسلامي .
21- تهافت ابن رشد في كتابه تهافت التهافت - مظاهره ، آثاره ، أسبابه-

22- جناية المعتزلة على العقل و الشرع – مظاهرها ، آثارها ، أسبابها –
23- الحركة الحنبلية و أثرها في بغداد (من القرن: 3 إلى الخامس الهجري)
24- الحركة العلمية الحنبلة و أثرها في المشرق الإسلامي(ق: 6 إلى 7 الهجري)
25- نقض كتاب بسط التجربة النبوية للباحث الإيراني عبد الكريم سروش.
26- نقض الروايات القائلة بتحريف القرآن الكريم الواردة في المصادر السنية- مظاهرها وآثارها ، مصادرها و أسبابها-
27- المرويات التاريخية عند المسلمين: أساليب النقد وظاهرة الوضع فيها- مبرة الآل والأصحاب، الكويت، 1431هـ/ 2010 .
28- نقد الروايات والأفكار المؤسسة للتصوف-- قراءة نقدية لأسانيد ومضامين الروايات المؤسسة للتصوف بكل مقوماته -
29- التضليل والتحريف في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
30- نقد تجربة الشك واليقين عند أبي حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال .